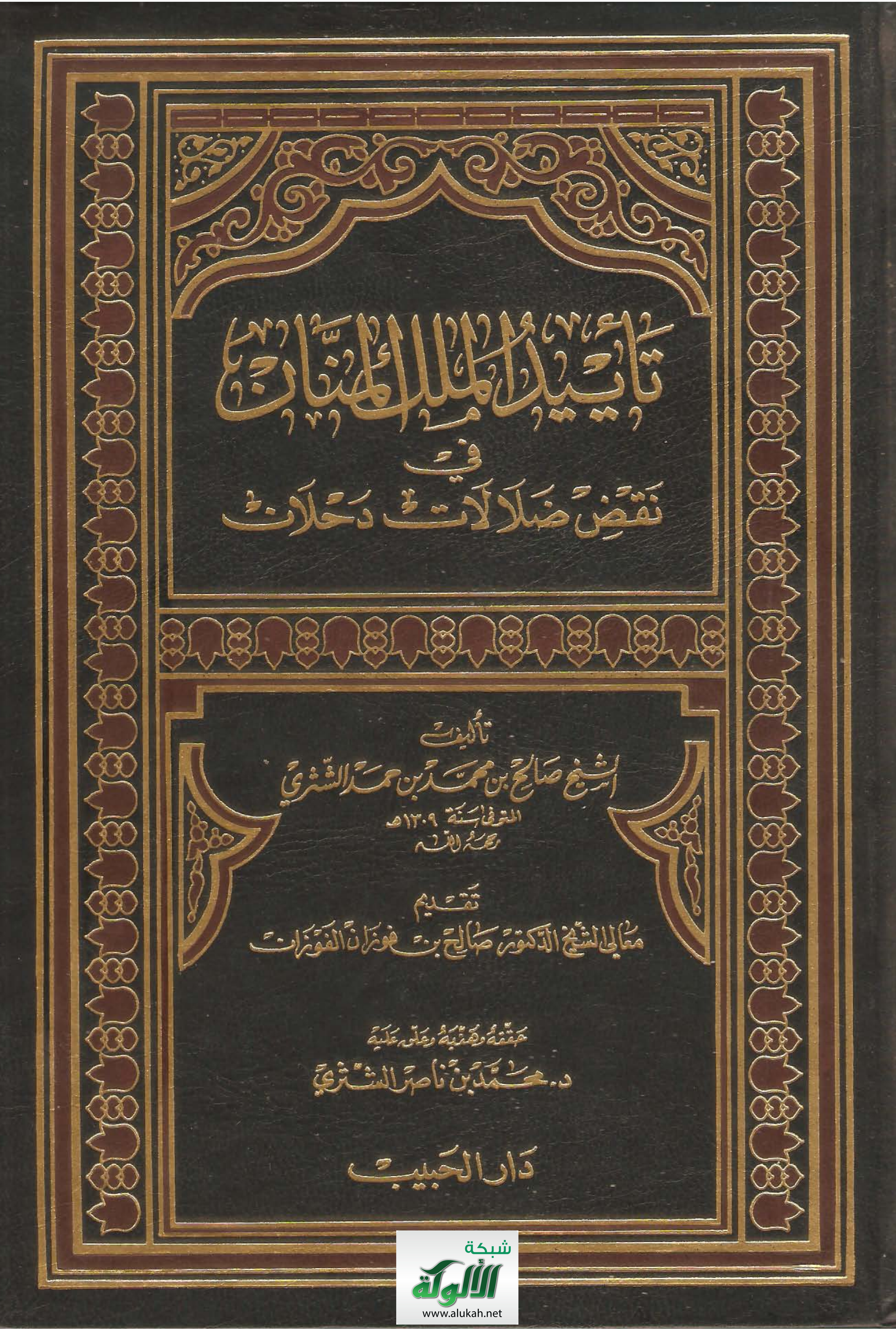

تأييد الملك المنان
في
نقض ضلالات دحلان
تأليف
الشيخ صالح بن محمد بن حمد الشثري
المتوفى سنة ١٣٠٩هـ
رحمه الله
تقديم
معالي الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان
حققه وهذبه وعلق عليه
د. محمد بن ناصر الشثري
دار الحبيب
شبكة
الألوكة
www.alukah.net




تأييد الملك المنان
في
نقض ضلالات دحلان



الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار الحبيب - الرياض - ص ب : ١١٥٦٤ - هاتف : ٤٨٢٥٤٨٥



تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان

تأليف

الشيخ صالح بن محمد بن حمد الشثري

المتوفى سنة ١٣٠٩هـ رحمه الله

تقديم

معالي الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان

حققه وهذبه وعلق عليه

د. محمد بن ناصر الشثري

دار الحبيب




شبكة
الألوكة


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن أعداء الإسلام ودعاة السوء كانوا ومازالوا يبذلون جهدهم في الصد عن سبيل الله والدعوة إلى الباطل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، ولكل قوم وارث، فقد انبرى قوم ممن ينتسب إلى العلم بالصد عن دعوة التوحيد التي بعث الله بها جميع الرسل، وقام بالدعوة إلى تجديدها العلماء المحققون كلما اندرست لتبقى حجة الله على عباده قائمة كما وعد الله بذلك سبحانه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ .

ومن هؤلاء الصادين عن دعوة التوحيد رجل من المقيمين بمكة يقال له أحمد زيني دحلان حيث ألف كتابا مشحونا بالضلالات والأكاذيب على دعاة التوحيد ولاسيما إمامهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - فقيض الله له من نقض بنيانه بالرد عليه - ومن هؤلاء الشيخ العلامة : صالح بن حمد الشثري - رحمه الله - حيث ألف كتاب : «تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان»، ولكنه بقي مخطوطا حتى قيض الله له حفيده الدكتور : محمد بن ناصر الشثري - وفقه الله - فقام بالعمل على نشره بمناسبة أن جماعة من الخرافيين



مازالوا ينشرون ضلالات دحلان ويلبسون على الناس - فكان في نشر هذا الكتاب وأمثاله قمع لباطلهم - إن شاء الله - فجزى الله المؤلف والناشر خير الجزاء - وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه:

صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للافتاء

٢٩/ ٩/ ١٤٢٠هـ



مقدمة المحقق

الحمد لله الذي أمرنا بعبادته وحده لا شريك له، إذ هذا مقتضى لا إله إلا الله، وخلق الجن والإنس لهذه الغاية الشريفة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذا الكتاب أخي المسلم نصيحة عالم صالح فاضل، رأى حال المسلمين في أمر خطير، فاحترق قلبه ألماً وشفقة، فأدى النصيحة طاعة لربه وخوفاً من كتمان العلم، وإبراءً لذمته كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾. وكما قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

واعلم أخي أن الدين الإسلامي قائم على إفراد الله بالعبادة، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

فالعبادة لله وحده، لا يصح أن نشرك معه أي أحد. وقد اتفق الأنبياء على ذلك، بل إن أديانهم مبنية عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. فتوحيد الله بالعبادة هو لبّ رسالة الأنبياء، وأول نداء لهم، وأول موضوع يهتمون به ويدعون إليه.

والأمر خطير جد خطير؛ لأن رأس الأمر الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله بمعنى أن العبادة حق لله لا تُصرف لغيره، وأن محمداً



رسول الله فلا يعبد الله إلا بما بلغه رسول الله ﷺ، ومن عبد قبراً أو ولياً أو رجلًا صالحاً أو غير صالح أو دعاهم فقد أشرك بالله وترك لا إله إلا الله، وعصى رسول الله فيما أرسله الله به، وهذا مُخرج عن الإسلام ومُدخل في الردة والكفر، وإن صلى وصام وحج وزعم أنه مسلم.

وعبادة القبور أضرّ على المسلمين من جميع المعاصي وأشد من الزنا وشرب الخمر والمخدرات من عدة وجوه منها:

* أن المعاصي لا تخرج فاعلها عن الإسلام، وأما عبادة القبور فمخرجة عن الإسلام، موجبة للخلود في نار جهنم بدلالة النصوص المتواترة التي ستجد بعضها في هذا الكتاب.

* ومنها أن من يعمل المعصية يعلم أنها معصية فربما تاب، وأما عابد القبر فيظن أنه على حق ويظن أن هذا هو الدين فيكون على طريقة النصارى الضالين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فانظر لحال المسلمين: لما هان الله عليهم فعبدوا غيره من قبور الأولياء هانوا على الله فسلط عليهم الأعداء وصارت حالهم كما ترى من الذلة ولا يرفعه عنهم إلا الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا عز لهم ولا سعادة إلا بعبادة الله وحده، وترك عبادة غيره من مشاهد وقبور ونحوها، ولنعتبر بحال العرب في زمان النبي ﷺ، فبعد أن كانوا في الجاهلية أمة ضائعة ولا وزن لها بين الأمم أشبه ما يكونون بحال العرب اليوم، فلما اتبعوا النبي ﷺ ولم يعبدوا إلا الله وحده صاروا أعزّ بني الدنيا وهم سادة العالم، جبيت إليهم كنوز الدول وخدمهم بنات ملوك الدنيا في ذلك العصر، ومصيرهم إلى الجنة إن شاءالله؛ لأن من أقام أركان الإسلام وأولها إفراد الله بالعبادة، حسب مفهوم لا إله إلا الله نال

سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

لما علم أعداء الإسلام ـ وفي مقدمتهم الشيطان الرجيم ـ ما للتوحيد من منزلة في الدين، إذ لا إسلام بدون إفراد الله بالعبادة، جهدوا في نشر الشرك ووثنية القبور بين أفراد الأمة، فانتشر ذلك بل تبنته بعض الدول المنتسبة للإسلام بالاسم حتى أصبحت بعض الشعوب الإسلامية مجموعات من الدراويش، وعبدة القبور من خلال ترويج الشركيات والخرافات، ولقد ساءت الأحوال في بعض البلاد الإسلامية وللأسف لدرجة أن بعض من يعلم حقيقة هذه الوثنية وأنها تناقض الإسلام وتزيله بالكلية لا يستطيع إعلان وثنية هؤلاء الدجاجلة خشية أن يفتكوا به، أو يفتوا بكفره.

إن من العلامات البارزة في مسيرة الدعوة الإسلامية في العصر الحديث الدعوة الإصلاحية التي قادها الشيخ محمد بن عبدالوهاب والتي دعت إلى إحياء روح الإسلام الحقيقي، والتمسك بجوهر الإسلام النقي والتحرر من جهود التعصب المذهبي، في وقت لا يعرف عن الإسلام في الغالب إلا أنه الدروشة وطقوس وعبادات مضحكة مبكية.

وكان الشيخ محمد بن عبدالوهاب يهدف من دعوته إلى تحقيق ما يلي:

١ ـ توجه العباد بعبادتهم لله وحده فلا يصرفون شيئاً منها لغير الله مهما كانت منزلته تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾.

٢ ـ تنقية العقيدة مما شابها وعلق بها من البدع والخرافات وتصحيح مسارها من الانحرافات التي حادت بها عن حقيقتها وأصالتها والعودة بالإسلام إلى ما كان عليه أيام الرسول ﷺ والصدر الأول من صفاء ونقاء.

٣ ـ إقامة مجتمع إسلامي يؤمن بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة في ظل دولة إسلامية تطبق أحكام الإسلام في جميع شؤون الحياة.

وقد استطاعت هذه الدعوة إقامة المجتمع الإسلامي الذي يطبق أحكام الإسلام ويقيم شعائره الظاهرة كالمحافظة على صلاة الجماعة وإيتاء الزكاة وتحكيم شرع الله وإقامة الحدود الشرعية كما أحيا نظام الحسبة مما هيأ الأمن والاستقرار في البلاد وقد أثرت هذه الدعوة الإصلاحية في كثير من الدعوات الإسلامية في العصر الحديث، بل وحركت الدورة الدموية في شرايين الدعوة الإسلامية، حتى بان مشعل الهداية لمن أراد الاستنارة والاقتباس، وقيض الله لهذه الدعوة رجالاً احتسبوا حياتهم وجميع طاقاتهم لله، فمنهم من جاد بنفسه ودمه في سبيل الله، ومنهم من احتسب مداد قلمه وعلمه لدين الله، ومنهم من جمع الحسنيين فعاشت الجزيرة العربية حركة دعوية ونهضة علمية نقية بلغ نفعها في ذلك الزمان بلاد المغرب غرباً والهند شرقاً، ولكن وجد من حاول إعاقة هذه الدعوة لأسباب دنيوية من طلب جاه أو مال أو سمعة، وأغاظه علو نورها، وامتلأ قلبه حقداً كلما رأى انتشار نفعها فراح يرميها بكل عظيمة وبهتان، ويصمها بكل فرية لم يراقب فيها الملك الديان، حتى أفتى بكفرهم وإباحة دمائهم وأموالهم والنسوان، وألفوا في ذلك الكتب ونشروها في البلدان، واقتضى هذا من أهل الدعوة أن

يردوا عليها ليبينوا الصبح لكل ذي عينين ويقارعوا مناوئيهم بالحجة والبرهان التي هي من أساليب الدعوة منذ قديم الزمان، فكان ممن ألف رجل معارض للدعوة يدعى أحمد زيني دحلان ألّف كتاباً سوَّده بكل ما شان، وقد رد عليه بعض علماء ذلك الزمان، فممن ردّ عليه أحد علماء الهند الأفاضل هو الشيخ محمد بشير السهسواني بكتاب سماه: «صيانة الإنسان عن وساوس دحلان» وطبع طبعة قديمة ندر وجودها ولا أعلم أحداً رد عليه من علماء جزيرة العرب بكتاب مستقل غير هذا الرد للشيخ صالح بن محمد الشثري وهو من علماء القرن الثالث عشر، وسماه: «تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان»، وقد بقي هذا الكتاب عندنا مخطوطاً أكثر من مائة سنة وما كان هذا الكتاب ليطبع لولا أن كتاب الخصم صار يطبع منه بالآلاف في بعض البلاد العلمانية المجاورة، مما استوجب طبع هذا الرد عليه لقمع الباطل بالحق.
والنسخة التي عندي بخط الشيخ محمد بن عميقان التميمي ـ رحمه الله ـ وهو من طلبة العلم المعروفين في الحوطة، ومن تلاميذ الشيخ المؤلف، وقد قرأ هذه المخطوطة على مؤلفها، كما قرئت على الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ وأيضاً ذكر لي الشيخ عبدالله بن جبرين أنه قد قرأ هذا المخطوط كاملًا على الجد الشيخ عبدالعزيز بن محمد الشثري وأنه قد عزم على طبعها ولكن لم يتيسر له ذلك.

إن أحمد زيني دحلان الذي أباح للناس عبادة القبور وحارب من دعا إلى التوحيد قد قدم إلى ما عمل وسوف يحاسب بعمله ولكن مصيبته أن ضلاله ينشر ويضل به طوائف كثيرة من المسلمين. وفي الحديث: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة**».

إن علماء مكة المكرمة وفضلاءها وعقلاءها قد أنكروا شرك هذا الضال وأمثاله، وقد كتبوا بهذا كتابات تجد بعضها في ملحق هذا الكتاب بخطوط أيديهم وأختامهم، وهم الشيخ سعد وقاص، والشيخ محمد حبيب الله بن مايابي الشنقيطي، والشيخ محمد المرزوقي، والشيخ حسين بن محمد سعيد عبدالغني، والشيخ خليفة بن حمد النبهان، والشيخ عمر بن أبي بكر بالبيد، والشيخ حسين بن عبده، والشيخ عباس بن عبدالعزيز المالكي، والشيخ محمد جمال بن محمد الأمير، والشيخ درويش بن حسن العجمي، والشيخ علي بن محمد سعيد بابصيل، والشيخ عمر فقيه، والشيخ محمد سعيد أبو الخير، والشيخ محمد زين العابدين الكتبي، والشيخ أحمد بن عبدالله ناضرين، والشيخ عبدالله بن إبراهيم حمدوه، والشيخ محمد بن إبراهيم فوده، والشيخ أبو بكر بابصيل، والشيخ عمر جاف، والشيخ محمد الخيرامان، والشيخ محمد بن كامل سندي وغيرهم كثير من أمثال الشيخ حسين نصيف، والشيخ التلمساني، ومشايخ آل الدهلوي، والشيخ سلطان المعصومي.
وأيضاً الشيخ أبو بكر خوقير الذي سجنه حاكم مكة بسبب التزامه بعقيدة محمد ﷺ وبراءته من الشرك وأهله، ومكث في السجن هو وابنه وتوفي ابنه معه في السجن وتُرك جيفة أمامه إمعاناً في تعذيبه حتى قدم الملك عبدالعزيز رافع راية التوحيد رحمه الله، وأخرج الشيخ أبو بكر خوقير من السجن وقد تغيرت حاله رحمه الله، والشيخ محمود شويل الذي ألف كتاب: «القول السديد في قمع الحرازي العنيد» وأمثال الأشراف آل راجح الذين قتلهم حاكم مكة آنذاك بسبب التزامهم عقيدة محمد ﷺ وبراءتهم من الشرك وأهله. وأمثال الشريف خالد بن منصور بن لؤي الذي أوذي بسبب عقيدة التوحيد، والأشراف الحرّث

الذين سجنوا في مكة المشرفة، هذا من علمنا، ومن لا نعلمه أكثر ـ الله سبحانه يعلمهم ويتقبل عملهم الصالح ـ.

ولما فتح الملك عبدالعزيز تلك البلاد فرحوا به كما فرح به عامة الخلق في كل بلد يفتتحها.

لقد كان الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ من دعاة إفراد الله بالعبادة ومن المحاربين للشرك بأنواعه ومظاهره، لقد سلك الملك عبدالعزيز منهجاً قوياً في ترسيخ العقيدة الصحيحة في البلاد إقامة لدين الله وطاعة لأوامر الله امتداداً لجهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والإمام محمد بن سعود في تقرير العقيدة الصحيحة ونشرها والذبّ عن حياضها، ومن هنا دعا الناس إلى تجريد العبادة لله وحده بحيث لا يعبد مخلوق مخلوقاً مثله من دون الله أو مع الله، فحارب عبادة المخلوقين ولو كانت بدعوى حب الصالحين أو التوسل بهم الذي يشبه قول المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

كان الملك عبدالعزيز يتمسك بعقيدة التوحيد ويبني على هذا الأساس كل قراراته وتصرفاته.

فالصفة الأكثر أهمية ووزناً وعمقاً في شخصية الملك عبدالعزيز أنه رجل عقيدة قبل كل شيء، ومؤدي ذلك أن الخصائص الأخرى تستمد من العقيدة قوتها وأثرها وظهورها.

فقد علم من سيرة الرسول ﷺ ومن سيرة الخلفاء الراشدين والحكام والصالحين أن أصل الأصول في الدولة الإسلامية هو عقيدة التوحيد، ومن الكلمات المشهورة قول الملك عبدالعزيز للشريف خالد بن لؤي حيث قال له: «كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله. إني والله وبالله وتالله أقدم دمي ودم أولادي وكل آل سعود فداء



لهذه الكلمة لا أضنّ بها»، وذلك لأنه رحمه الله رجل موحد خالص التوحيد في خاصة نفسه ملتزم منهج السلف الصالح في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات لا يدعو غير الله ولا يشرع ما لم يأذن به الله.

ومن الأدلة الواضحة على تمسكه بعقيدة التوحيد:

١ ـ محبته للتوحيد وإخلاصه له وإعلانه فاختار الشهادتين شعاراً لرايته وعلماً لمملكته وشارة لبلاده.

٢ ـ اعتباره التوحيد القاعدة الرئيسة في حياة المسلمين ـ راعياً ورعية إماماً ومأمومين ـ وإذ يقيم الملك عبدالعزيز قلبه على توحيد الله فإنه في اللحظة ذاتها يلزم من يلي أمرهم بتوحيد الله جل شأنه.

٣ ـ من فرط إحساسه بمعاني التوحيد فإنه كان يقظاً لكل لفظ يجرح هذا التوحيد، فالتوحيد أقام الملك عبدالعزيز نفسه عليه عقيدة وسلوكاً. فقد كان في إحدى زياراته لبلدة الخرج في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣هـ إذ دخل عليه شاعر من أهل نجد وفي يده قصيدة استأذنه في إلقائها وتبدأ بمطلعها:
أنت أملنا وفيك الرجا
فصاح الملك عبدالعزيز قائلًا: تخسأ.. تخسأ، ولمح في المجلس أحد طلبة العلم فقال: علمه التوحيد.

فهو يدرك أن هذه الألفاظ من معاني توحيد الألوهية لا يجوز صرف شيء منها لغير الله. والتقى يوماً بزعيم عربي وفي أثناء الحديث أراد هذا الزعيم التوكيد على مسألة معينة، فقال مخاطباً الملك عبدالعزيز: وحياة رأسك، فرمقه ابن سعود بنظرة موحد وقال له: قل والله. ولما كانت عبادة الله وحده هي الغاية العظمى من وجود الإنسان

اقتضت عناية الله بهذا الإنسان أن يهيىء لدعوة التوحيد رجالاً يحيون مفاهيمها وأصولها ومقاصدها في القلوب والأفهام والمسالك والحياة كلها كل ما ران على القلوب رين من مفسدات التوحيد.

من هؤلاء الرجال الملك عبدالعزيز رحمه الله الذي نقى فؤاده من أدران الشرك ودعا أمته إلى التوحيد الخالص.

قال رحمه الله: «أنا داعية أدعو إلى عقيدة السلف الصالح.. وهي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما جاء عن الخلفاء الراشدين».

ويقول رحمه الله: «أما العبادة فلا تصرف إلا لله وحده لا ملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا تخفى عليكم الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ومعنى يعبدون يوحدون، فالتوحيد خاص بالله تعالى، والعبادة لا تصرف إلا إليه والرجاء والخوف والأمل كله بالله ولله وما بعث محمد ولا أرسل الرسل ولا جاهد المجاهدون إلا لتوحيد الله تعالى.

ويقول رحمه الله: «إني أفضل أن أكون على رأس جبل آكل من عشب الأرض أعبد الله وحده على أن أكون ملكاً على سائر الدنيا وهي على حالتها من الكفر والضلال. اللهم إنك تعلم أني أحب من تحب، وأبغض من تبغض، إننا لا تهمنا الأسماء ولا الألقاب وإنما يهمنا القيام بحق واجب كلمة التوحيد.

بهذا المفهوم الصادق لأصل التوحيد نظر الملك عبدالعزيز إلى العالم حوله بنظرة بالغة العمق والسداد.

فالعلاقة في ذات الله تعالى وعلى توحيده هي أنزه علاقة وأدوم علاقة، وفي ضوء ذلك لا يستغرب أن يكون الملك عبدالعزيز قدوة في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

كان الملك عبدالعزيز داعية للتوحيد بقوله وفعله، وقد اقتدى به عدد كبير من دعاة التوحيد في العالم العربي والإسلامي، ومما يدل على ذلك أن دعاة التوحيد في العالم الإسلامي كانوا يأتون ويجلسون إليه ويأخذون من أقواله ونصائحه ما يعزز نشاطهم ويحسن أساليبهم في الدعوة إلى التوحيد.

ولم يقتصر الأمر على مجرد النصائح بل تعداه إلى الدعم المادي والمعنوي لهؤلاء الدعاة بغرض نصرة هذه العقيدة، ومن أمثال هؤلاء الدعاة الشيخ محمد رشيد رضا مؤسس مجلة «المنار» التي نشرت مقالات التوحيد ومحاربة الشركيات، والشيخ محمد حامد الفقي، والشيخ محمود الألوسي وغيرهم كثير.

إذن فالعقيدة هي أغلى ما يملك الملك عبدالعزيز، وفي سبيل هذه العقيدة يقف الملك عبدالعزيز أمام تيارات الوثنية والخرافات الشركية ولو كان في المداهنة لأهل هذا التيار الكسب السياسي أو المغنم الشعبي.

ولقد عرف عن كثير من الساسة الذين يهمهم الكسب السياسي ـ فحسب ـ أنهم يجاملون الناس ويداهنون العامة في أمور العقائد، بل إن منهم من يشارك العامة خرافاتها ووثنياتها رغبة في الشعبية وطلباً للتأييد.

وكان من مقتضيات المجاراة العرفية في منطق السياسيين الذين يضحون بالعقيدة من أجل أهوائهم السياسية أن يجاري الملك عبدالعزيز بعض الأعراف وطوائف من العوام في البدع والخرافات التي تنال من

جلال التوحيد، ولكنه لم يفعل، لأن التوحيد أغلى وأسمى وأعظم من أي اعتبار آخر.

بل فعل ما هو نقيض ذلك حيث عقد العزم على تطهير الجزيرة من كل عرف أو تقليد أو عادة أو خرافة تفسد على الناس توحيدهم الخالص.

وهذه طريقة في الانتصار للعقيدة لا يستخدمها إلا داعية موحد لا يقايض على التوحيد بشيء.

وهكذا نرى تمسكه بهذه العقيدة التي يعتبرها منبع كل خير ومن ثم لم يفكر أن يأتي قومه بمذاهب فكرية مستوردة غريبة على عقول أمته ومعتقداتهم كما فعل بعض الزعماء المسلمين ممن عاصره، أو جاء بعده ملتمسين في هذه الأفكار حل مشكلاتهم، فكان نصيبهم من هذه الأفكار والمذاهب الإفلاس في جميع نواحي الحياة.

أما الملك عبدالعزيز فقد تمسك بعقيدة التوحيد ودعا إليها حتى وصف بأنه: «الداعية للحل الإسلامي»، وأوصى رحمه الله ولي عهده فقال:

«تعقد نيتك على ثلاثة أمور:

أولاً: نية صالحة وعزم على أن تكون حياتك وأن يكون دينك إعلاء كلمة التوحيد.

ثانياً: عليك أن تجتهد في النظر في شؤون الذين سيوليك الله أمرهم بالنصح سرّاً وعلانية والعدل في المحب والمبغض وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل، والقيام بخدمتها باطناً وظاهراً.

ثالثاً: عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة».



ولما حمل الملك عبدالعزيز راية الدعوة أدرك أن هذه الشركيات قد تغلغلت جذورها في النفوس وترسخت مفاسد وأدران الوثنية فشرع يخطط لإصلاح هذه النفوس وتطهيرها فجعل التوحيد قضيته المنهجية الأولى.

لقد شخَّص الملك عبدالعزيز الداء واتضحت سياسته الحكيمة في معالجة الشركيات والخرافات التي ترسخت بها التقاليد، فرأى في التعليم وتصحيح العقيدة الدواء الناجح حيث لا يمكن أن تتغير هذه المعتقدات إلا بوازع من الدين، وإعادتهم إلى عقيدتهم السلفية أو بمعنى آخر إقامة معالم الدين وإزالة هذه البدع والخرافات «هدم عبدالعزيز في نفوس المسلمين من جنود الدعاة أدرانها فأقام فيها رباط الأخوة في الدين واللحمة في العقيدة بعد أن قطع فيها رباط الجاهلية وعنجهية الأنا الطاغية» ومن ثم أصبحت بلاده موطناً للتحضر ومنطلقاً للتوحيد ونجح العلماء في إعادة نور التوحيد من جديد لهذه البلاد فأثمر هذا النجاح الوحدة بين أهلها على أساس عقيدة التوحيد. وكانت المهمة صعبة حيث كان عدد العلماء لا يكفي لمواجهة هذه المهمة.

«وتعب الملك عبدالعزيز تعباً شديداً في اختيار المرشدين الذين يوجهون الناس بالعقيدة الصحيحة والسلوك الصحيح، وقام العلماء بتحرير خطاباتهم المشتركة في توجيه القوم».

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى شخصية الملك عبدالعزيز المحبة للتوحيد المتمسكة به وأثرها في القوم، بحيث تجسدت عقائدية ابن سعود في جميع إنجازاته وخاصة بذلك المجهود في ترسيخ العقيدة الصحيحة بين المسلمين.

وهكذا فإن شخصية الملك عبدالعزيز بعد فضل الله هي التي

أعطت الدفعة القوية لهذا التحول العظيم وإحاطته بمقتضيات النجاح، ونجح الملك عبدالعزيز بتوفيق الله في أن يزيل سائر مظاهر الشرك، وأسّس دولته على الإخلاص لله وحده حتى كان أهل الجزيرة يعتزون بأنهم «أهل التوحيد».

وليس هذا الموقف خاصاً بالملك عبدالعزيز أو بعلماء نجد، ففي عام ١٣٤٣هـ أصدر علماء مكة بياناً جاء فيه:

١ ـ أن من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع أو دفع ضر فهو كافر حلال الدم والمال.

٢ ـ إن البناء على القبور واتخاذ السرج عليها وإقامة الصلاة فيها بدعة محرمة في الشريعة الإسلامية.

٣ ـ من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب محرماً.

واتفق العلماء على نشر هذا البيان الذي من خلاله اتضحت وحدة العقيدة في أنحاء المملكة.

قال الشيخ سلطان المعصومي الذي قدم من آسيا الوسطى: لما تشرفت بمكة المكرمة عام ١٣٥٣هـ انشرح قلبي برؤية الكعبة المشرفة زادها الله تشريفاً وتعظيماً، ولما شهدت توحيد الجماعة في الصلوات الخمس زادني سروراً على سرور لاضمحلال بدعة تعدد الجماعات في هذا المسجد الشريف، وكذا هدم قباب القبور التي كانت من أضر الأشياء على عقيدة المسلمين.

وهكذا وفق الله سبحانه وتعالى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن لذلك الأمر العظيم، وكذا تأمين الطرق، كما وفقه الله لما فيه رضاه من إحياء السنة المحمدية وقمع البدع المحدثة.



يقول الملك عبدالعزيز رحمه الله: «إن سبيل رقي المسلمين هو التوحيد الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان رسوله ﷺ».

فلقد كان أول ما يهتم به الملك عبدالعزيز في جميع أموره حماية جانب التوحيد والعقيدة الإسلامية من أن يخدشها ما يكدرها، ولقد بذل ـ وكذلك أسلافه من قبله ـ كل طاقاتهم وصرفوا جل اهتمامهم وجاهدوا لإعلاء كلمة التوحيد وإزالة جميع ما يخالف العقيدة الإسلامية لعلمهم الأكيد أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار، فبذلوا في سبيل ذلك دماءهم وأبناءهم وأموالهم فأعزهم الله بالملك في الدنيا، وإن شاء الله بما وعد به عباده الذين يموتون ولا يشركون به شيئاً أن يكون مصيرهم الأخير إلى الجنة.

ولقد كان الملك عبدالعزيز حريصاً على هداية المسلمين لعلمه أن من وظائف الحكومة الإسلامية نشر الدعوة الإسلامية بالحوار والحسنى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾.

انطلاقاً من هذا سعى الملك عبدالعزيز يدعو إلى العقيدة السلفية عالميًّا عن طريق استغلال مواسم الحج في الدعوة أو إيصال العقيدة النقية إلى البلدان المختلفة عن طريق نشر الكتب وتوزيعها في البلاد المختلفة مجاناً.

فمن سعة أفق الملك عبدالعزيز أنه كان يستغل مواسم الحج في الدعوة إلى تصحيح العقيدة، فكانت له رحمه الله مأدبة كبرى يلتقي فيها



بعلماء الدول والحجاج يدعوهم فيها إلى الله وإخلاص العبودية له.

خطب رحمه الله في جمع غفير من ضيوف الرحمن فقال: «المسلم لا يكون إسلامه صحيحاً إلا إذا أخلص العبادة لله وحده، يجب أن يتدبر المسلمون معنى لا إله إلا الله، يجب على الإنسان ألا يشرك مع الله في عبادته نبيًا مرسلًا، ولا ملكاً مقرَّباً، يجب أن يتبع المسلمون القول بالعمل، أما القول المجرد فلا يفيد، ما فائدة رجل يقول: لا إله إلا الله ولكن يشرك من دون الله في عبادته.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾. إن الإشراك مع عبادة الله كفر وليس بعد الكفر ذنب. إن دين الله ظاهر كالشمس لا لبس فيه ولا تعقيد».

ثم أضاف رحمه الله: «إن من أعظم الأوامر توحيد الله جل وعلا توحيداً منزهاً عن الشرك».

وخطب أيضاً في الحجاج فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن أول ما يلزمنا من الإسلام هو كلمة الشهادتين، ومعنى الشهادة «لا إله إلا الله» إنها تفيد إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى. لا يوجد إنسان غير مذنب؛ لأن العصمة لله وحده، ولكن الذنوب على درجات منها ما لا يمكن معه صفح أو غفران وهو الشرك بالله».

وهكذا نرى أن جهاد الملك عبدالعزيز كان مرتكزاً على تحقيق التوحيد في الأرض، ولم تتوقف الدعوة إلى حقيقة الإسلام بإفراد الله بالعبادة بموت هذا الإمام الصالح الملك عبدالعزيز، بل استمر أبناؤه على نهجه في الدعوة إلى كلمة التوحيد إلى إفراد الله بالعبادة في جميع المجالات، حتى راية هذه البلاد تميزت عن سائر أعلام البلدان بأنها لا



تنكس في مناسبات الحزن لاحتوائها على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

أسأل الله عز وجل أن يوفق ولاة هذه الدولة للاقتداء بهدي النبي ﷺ، ثم السير على نهج الإمام المخلص الموحد الملك عبدالعزيز، كما أسأله سبحانه أن يعين دعاة التوحيد في كل مكان إلى النشاط في جعل الناس يلتزمون بالإسلام الصحيح الذي هو إفراد الله بالعبادة، كما أسأله سبحانه أن يتقبل مني هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ولا يفوتني أن أشكر لفضيلة الدكتور الشيخ صالح بن فوزان الفوزان لما تفضل به من تقديم لهذا الكتاب وإثرائه بتعليقات وتصويبات مهمة، وقد أفادني بنقده أيما إفادة، فجزاه الله عني خير الجزاء وجميع من أسهم معنا في إصدار هذا الكتاب القيم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد بن ناصر الشثري

الرياض ص ب ٨٥٣٠



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

ولا حول ولا قوة إلا بالله، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الذي منَّ علينا ببعثة هذا الرسول الأمين ليتلو علينا آياته، ويزكِّينا ويُعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين. إله أكمل لنا الدين وأتم نعمته على المسلمين، ورضي الإسلام ديناً لجميع الموحدين، وأخبر أنه من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. وجعل الكتاب الذي أنزله بياناً للناس وشفاء وهدى وموعظة للمتقين، ووصفه سبحانه بأن آياته أُحكمت ثم فصلت إذ الإحكام والتفصيل يتم به التبيين، وأخبر سبحانه أنه أنزله بلسان عربي مبين لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. أحمده سبحانه وهو أهل الثناء والمحامد، وأثني عليه إذ هدانا سبيله، إذ ناء عنها كل مبتدع في توحيده وعن أدلته متباعد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تحصن قائلها من النار وتوجب له ولكم نور المتقين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسل بأفضل كتاب وأقوم دين، وأيده بأكمل الآيات وأشرف البراهين. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما دامت الأحايين وسلم تسليماً. أما بعد:

فقد ورد علينا في السنة الأولى من القرن الرابع عشر رسالة شنيعة وأقوال واهية فظيعة لأحمد بن زيني دحلان مفتي الحرم الشريف سماها «الدرر السنية في الرد على الوهابية»[1] ـ وكان اللائق أن تسمى:

---

(١) يقول الشيخ فوزان السابق في كتابه: «البيان والإشهار» ص ٤٥: «قال بعض الفضلاء من علماء مكة: تصانيف دحلان كالميتة لا يأكلها إلا المضطر. وقد رد=

«الضرر السمية لإهلاك الأمة المحمدية» ضمَّنها الكذب والزور وتحسين الدعوة والالتجاء لأهل القبور، وتحامل فيها على أهل التوحيد بالبهت والفجور. سود القرطاس بضروب من الوسواس كذكره منامات وحكايات وخزعبلات إذا نظر في نسخته العاقل اللبيب علم ببديهة عقله أنها من الباطل الذي لا يشك فيه ولا يستريب، فضلًا عمن له في علم التوحيد أدنى نصيب، إذ أقواله تدور على جحود التوحيد ومصادمة محكمات القرآن المجيد، كذباً وتأويلًا وتحريفاً وتبديلًا، وليس ذلك ببدع من أحوال المبطلين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ وكذلك أعداء أتباع الأنبياء على طريقة أسلافهم سالكون، ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. فالواجب على من عرف الحق بدليله أن يسعى فيما يبطل دعواه ويهدم ما أسسه من الزيغ وبناه، ويبين ما فيه من المكابرة وما أتى به من المماحلة، تعمداً ومجاهرة ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ

= عليه كثير من علماء الهند والعراق ونجد وغيرهم، ففضحوه وبينوا ضلاله، وقد سمعت غير واحد ممن يوثق بهم من أهل العلم يقولون: إن دحلان هذا رافضي لكنه أخفى مذهبه وتسمى بتقليد أحد الأئمة الأربعة ستراً لمقاصده الخبيثة، ولنيل المناصب التي يأكل منها ومن أدل الدليل على رفضه الخبيث تأليفه لكتاب: «أسنى المطالب في نجدة أبي طالب» الذي رد فيه بهواه نصوص الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة»، انتهى كتاب تحاسد العلماء للشيخ عبدالله بن حسين الموجان ص٣٧٨.

أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وقد عنَّ لي أن أرمي بسهمي في رد هذه الأباطيل، وإن كنت قاصر الباع قليل الاطلاع رجاء أن أكون ممن ينفي عن دين الله غلوّ الغالين وتحريف المبطلين، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

قال الدحلاني الملحد: قد سألني بعض من لا تسعني مخالفته[1] أن أجمع له ما تمسك به أهل السنة في زيارة قبر النبي ﷺ والتوسل به من الدلائل والحجج القوية من الآيات والأحاديث النبوية... انتهى.

فمراده بأهل السنة أهل الابتداع كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهم لا أهل الاتباع، ولذلك غاير بين أهل سنته وبين السلف بقوله: وأجمع ما ورد عن السلف والعلماء والأئمة المجتهدين في ذلك ليكون ذلك مبطلاً لإنكار المنكرين، فأعجب لتنويع هذا الضال من رذيله.

---

(١) قول دحلان من لا تسعني مخالفته يدل على عدة أمور منها: أن الذي أمره بكتابة هذا الكتاب لا يستطيع دحلان أن يخالفه بمعنى أنه من أصحاب السلطة المعادية للمسلمين المتمسكين بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، خاصة لما رأى هؤلاء الضالون دولة التوحيد (الدولة السعودية الأولى) قامت في جزيرة العرب وطهر الله بها الحرمين الشريفين من مظاهر عبادة القبور أغاظهم ذلك خاصة وأن الدولة العثمانية تريد بقاء الحرمين تحت سيطرتها لأهداف دعائية ويصفون من نازعهم فيها بالكفر ليحجزوا بين سكان الأقطار الإسلامية وبين الحق والتوحيد الذي قامت به الدولة السعودية، هذا سبب من أسباب تأليف دحلان لكتابه، السبب الثاني: ضعف الوازع الديني لدى أحمد دحلان حيث إن دين الحق واضح للعامي فكيف بالمتعلم؟ ولكن دحلان خالف الحق في هذا الكتاب تزلفاً للسلطة العثمانية وطلباً للجاه خاصة وأنهم نصبوه مفتياً. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. فيا عظم خسارة من باع دينه بدنياه، وكم من المسلمين مات على عبادة القبور والأولياء والصالحين بسبب علماء السوء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ

قال الدحلاني: اعلم رحمك الله أن زيارة قبر نبينا ﷺ مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

فأقول: هذه دعوى مجردة عاطلة عن التحقيق ملقية قائلها بكذبه على كتاب الله وسنة نبيه الصحيحة المطهرة، وعلى إجماع أمته، إلى مكان سحيق لم يستضيء فيما ألفه بنور العلم، ولم يلجأ إلى ركن وثيق، فكتاب الله هو النور وهو الهدى والشفاء لما في الصدور، لا يوجد فيه حرف واحد يدل على زيارة قبر المصطفى ولا سائر القبور، ولكن هذا المشبِّه وأمثاله يضلون العباد بذكر أحاديث موضوعة، ودعاوٍ ملفَّقة مكذوبة، فينبغي للمسلم أن يبحث عن حقيقة الإسلام الذي بُعث به المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، ويتأمل النصوص الصحيحة الصريحة النبوية، ويعرف ما كان عليه عمل الصحابة والتابعين وما درج عليه بعدهم أئمة الدين، فهؤلاء هم الذين على عملهم وإجماعهم المعول، قال ﷺ: «**خياركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[1] . وقال ﷺ لأصحابه: «**تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيع عنها بعدي إلا هالك**»[2] ، واعتاض هذا الضال فيما

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧) عن عمران بن حصين و(٢٤٥٨) عن ابن مسعود. ومسلم (٤٦٠١) عن ابن مسعود. والشطر الثاني أخرجه مسلم (٧١) عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣) وأحمد (١٦٥١٩) عن العرباض بن سارية مطولاً.

جمعه عن محكمات كتاب الله المنزل وعن صحيح السنة الثابتة وعن النبي المرسل وعن أقوال الصحابة والتابعين، وعن أئمة المسلمين بزخارف الهذيان، وبقول فلان وفلان فبؤساً له من اعتياض، كقوله: قال صاحب الجوهر المنظم، وقال في خلاصة الوفاء، وقال في المواهب، وقال المراغي، وقال الزرقاني، وقال زروق، وقال ابن علان، وجاء عن العتبي ونحوهم، فهذا محصل ما استدل به على تجويز بدعه وضلاله، أيظن مسلم أنه خفي على أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم وأئمة المسلمين كالأئمة الأربعة ونظرائهم، كسفيان الثوري، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، ومن قبلهم كربيعة بن أبي عبدالرحمن ومن في طبقته، ما ادعاه هؤلاء الضلال، وعلمه الخلوف، هذا من أبطل الباطل، وأمحل المحال، لكن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن استدلالات أهل البدع وحججهم يُشبه بعضها بعضاً ليست من حجج المسلمين لا ينقلونها ولا موجبها عن أحد من أئمة الدين، بل هي من جنس حجج النصارى والمشركين، إما نقل عن الأنبياء هو كذب عليهم، كالأحاديث التي يحتجون بها في أنه رغب في زيارة قبر النبي ﷺ، وكلها كذب، كما يحتج النصارى بما ينقلونه من الكذب على الأنبياء، وإما ألفاظ متشابهة يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ويضعونها على غير مواضعها، ويتركون المحكم المنصوص، ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وكذلك يتركون من القرآن المحكم البين الذي هو محفوظ في أم الكتاب، وأما احتجاجهم بقول من ليس قوله حجة ولا يجب اتباعه. . .» انتهى. كاستدلالات هذا الضال وأمثاله، اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل. ثم لما لم يجد هذا الملبس

على العوام في كتاب الله العزيز حرفاً واحداً يدل على مشروعية زيارة قبر نبينا ﷺ عدل إلى تحريف معاني كتاب الله العزيز فقال: ومما يدل على مشروعية زيارة قبر نبينا ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. قال: فدلت الآية على حث الأمة على المجيء إليه والاستغفار عنده، واستغفاره لهم وهذا لا ينقطع بموته، إلى أن قال: وقد علم من كمال شفقته على أمته على أنه لا يترك ذلك لمن جاء مستغفراً به سبحانه، والآية وإن وردت في قوم معينين تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك في حال الحياة وبعد الممات، ودلت أيضاً على أنه لا فرق في المجيء إليه بسفر أو بغير سفر، انتهى. فيقال لهذا الضال: أما أحكام القرآن فهي وإن وردت لسبب خاص فحكمها عام إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فقوله: وإن وردت في قوم معينين تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك في الحياة وبعد الممات، فيقال: أما العلة المطابقة فهي أن كل من تحاكم إلى غير الرسول ﷺ فأعرض عنه ولو غير من نزلت فيهم الاية، ثم تاب إلى الله وتنصل من دينه وجاء إلى رسول الله في حال حياته وتشفع به ﷺ وهو حي يأمر وينهى ويستغفر لمن طلبه منه ثم استغفر له الرسول فهذه العلة المطابقة النافعة، وإنما هذا الرجل عياذاً بالله من حاله وما انطوى عليه قبيح مقاله يفسر القرآن بالهوى والرأي الفاسد، و«من قال في القرآن برأيه وبما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار»[1]، ولا يخفى أن الآية نزلت في أناس تركوا التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهو بين ظهرانيهم وعدلوا إلى

---

(١) أخرجه ابن جرير والترمذي والنسائي وأبو داود من حديث ابن عباس مرفوعاً. وحسنه الترمذي. وفي سنده عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، ضعيف.

التحاكم إلى الطاغوت، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك من الطاغوت وغيره، جاؤك تائبين إلى الله متنصلين من جناياتهم ومخالفاتهم فاستغفروا الله لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وطلبوا منك أن تستغفر الله لهم فاستغفرت لهم لوجدوا الله تواباً رحيماً، أي كثير التوبة عليهم والرحمة لهم، وهذا المجيء يختص بزمان حياته ﷺ وليس المجيء إليه يعني إلى مرقده المنور بعد وفاته ﷺ، مما تدل عليه هذه الآية كما قرره الحافظ في «الصارم المنكي» ولهذا لم يذهب إلى هذا الاحتمال الباطل أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بإحسان فلو كان خيراً لسبقونا إليه، وهذا حاصل كلام المفسرين رحمهم الله على هذه الآية.

وأما قوله: وقد فهم العلماء من آية النساء العموم في حياته وبعد مماته وأنه لا فرق في الجائي إليه بسفر أو بغير سفر لوقوع جاؤك في حيز الشرط، انتهى.

فالجواب: أما العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء القرون الثلاثة أئمة الدين فلا يعرف عنهم أثر واحد بسند صحيح أو حسن أو ضعيف أنهم فهموا من الآية ما ذكر هذا المبتدع، بل إذا وجد خلافاً في مسألة عن المتأخرين نسبه إلى العلماء قاطبة ليشبه على عوام المسلمين.

وأما قوله: وقد علم من كمال شفقته على أمته أنه لا يترك ذلك لمن جاء مستغفراً ربه سبحانه.

وهذا بناء على ما قرره وكرره في رسالته من أن النبي ﷺ حي في قبره مع أن هذا الرجل متناقض في وصف حياة النبي ﷺ، فتارة يقول:



إنه حي في قبره يتصرف ويستغفر لمن طلب منه الاستغفار، كما في قوله: وقد علم من كمال شفقته... إلخ. وكما في ذكر قصة الأعرابي أنه نودي من القبر: غفر لك، بعدما طلب من النبي ﷺ المغفرة. وتارة يقول: الأنبياء والأولياء كلهم أحياء في قبورهم، وتارة يقول: إن حياتهم تشبه حياة الملائكة! ومن المعلوم أن الملائكة عليهم السلام مكلفون في حال حياتهم بعبادة الله وأمره، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فيلزم على تسوية هذا المبطل حياة الأنبياء بحياة الملائكة، أن الأنبياء مكلفون بعد وفاتهم وهذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل، ولكنه يخبط خبط عشواء، فما وجده محكيًّا قبله نقله فهو راكب تعاسيف، وقد كرر مع ذلك موته ﷺ في نسخته مراراً وهذا حال من عدل عن الصراط المستقيم، فالله المستعان. إذا عرف هذا فقد قال شمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: اعلم أنه لم يرد حديث صحيح أنه ﷺ حي في قبره، لكن نقطع أن الأنبياء ولا سيما خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ عليهم أجمعين أعلى رتبة من الشهداء، وقد قال سبحانه عن الشهداء أنهم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فالأنبياء أولى بذلك، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية، ومع ذلك فالشهداء داخلون تحت قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. فأثبت سبحانه للشهداء موتاً بدخولهم في العموم كالأنبياء، وهو الموت المشاهد ونفى عنهم موتاً. فالموت المثبت فراق الروح الجسد وهو مشاهد محسوس، والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن جميعاً. قال البيضاوي ـ رحمه الله ـ على قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ فيه تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد لا من جنس ما يحس

به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يُدرك بالعقل بل بالوحي. انتهى.
قال شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن أبابطين: ومن العجب أنه لو جاء إنسان إلى ميت على وجه الأرض شهيداً أو غير شهيد يطلب منه أن يدعو الله فضلًا عن أن يطلب منه أن ينصره على عدوه أو يكسوه لقال الناس هذا مجنون، فإذا صار رميماً في بطن الأرض زين لهم الشيطان ودعاة الضلال من الإنس الاستغاثة به وطلب الحاجات منه، والعامي سليم الفطرة يعلم بطلان هذا بفطرته، كما حكي أن رجلًا من أهل عبادة القبور ينسب إلى علم قال لرجل عامي من أهل التوحيد: أنتم ما للأولياء عندكم قدر، والله يقول في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال له العامي: هل قال يُرزقون يعني بفتح الياء، أو قال يرزقون يعني بالضم، فإن كان يعني بالفتح فأنا أطلب منهم، فإن كان يعني بالضم فأنا أطلب من الذي يرزقهم، فقال القبوري: حجاجكم كثيرة وسكت. ويقال لمن ادعى أن النبي ﷺ حي في قبره كحياته لما كان على وجه الأرض ثبت أنه ﷺ مات بنص القرآن، فما حجتكم على أنه عاد حيًّا كما كان على وجه الأرض قبل موته؟ فلن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وليس عندهم إلا مجرد دعوى أو شبهة لا حقيقة لها، ويدل على بطلان هذه الدعوى ما رواه أبو داود عنه ﷺ قال: «**ما من مؤمن يسلم علي إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام**»[1]. فهذا يدل على أن روحه الشريفة ﷺ ليست في بدنه دائماً وإنما هي في أعلى عليين، ولها اتصال بالجسد الله أعلم بحقيقته، لا يدركه الحس ولا العقل، وليس ذلك خاصًّا به ﷺ لحديث: «**ما من مسلم يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧٤٥) وأحمد (١٠٣٩٥).

السلام»[١] . وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش**»[٢] الحديث. وقد أخبر الله سبحانه أنهم في البرزخ أحياء عند ربهم يرزقون. وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في حق النبي ﷺ: أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها، ولن يجمع الله عليك بين موتتين[٣] . وقد قام الدليل القاطع أنه عند النفخ في الصور لا يبقى أحد حي، فلو كان الأمر كما يزعمون لكان الله قد يجمع عليه موتتين، ولما قال ﷺ: «**أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي**»، قالوا: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ (يعني قد بليت) قال: «**إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[٤] ولم يقل لهم أنا حي في قبري كحياتي الآن صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. انتهى.

وأما هذا الضال فهو يورد من الألفاظ ما لا يدل على المقصود بل يشبه على خفافيش البصائر بإيراد الشبه وتكثير العبائر.

كما قال الدحلاني: وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾ . ولا شك أن من له أدنى مسكة من ذوق العلم يدرك أن من خرج لزيارة قبره ﷺ يصدق عليه أنه خرج مهاجراً

---

(١) أخرجه ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات / ١٦.

(٢) أخرجه مسلم (٣٥٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١٦٥) و(٤٠٩٧).

(٤) أخرجه النسائي (١٣٥٧) وأبو داود (٨٨٣) وابن ماجه (١٠٧٥) و(١٦٢٦)، وأحمد (١٥٥٧٥) والدارمي (١٥٣٦).

إلى الله ورسوله. انتهى. وهذا من جهله وضلاله يحرف معاني كتاب الله على ما يقتضيه قصده وهواه، فإن الآية نزلت في الهجرة الواجبة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، ثم قال الدحلاني: وصح في صحيح مسلم أن بعض الصحابة فهم من آية النساء ذلك المعنى، أي الزيارة. انتهى

فما الذي منع هذا الضال عن ذكر الحديث بلفظه حتى يتبين كذبه وافتراؤه على أصحاب رسول الله ﷺ، فسبحان من طبع على قلب من شاء من عباده عن فهم مراده من كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله وتلقاه عنه من اختاره لصحبته، وبين لهم ﷺ معانيه، وألقاه الصحابة إلى التابعين، وألقاه التابعون إلى من بعدهم من أئمة الدين، وهؤلاء هم أهل القرون المفضلة الذين على عملهم وإجماعهم المعول، إذ هم أقوم الناس بحقوقه ﷺ، وأعلمهم بها، وأحب الناس إليه، لا يوجد عن أحد منهم أثر واحد يدل على ندبية زيارة قبره المبتدعة فضلاً عن وجوبها، بل يوجد منهم ما يدل على عدم إطرائه والغلو فيه كما فعلت النصارى بالمسيح، وسنورد ـ إن شاءالله تعالى ـ كما أوجب الله علينا من حقوقه وما نهى عنه من إطرائه وتعظيمه فوق منزلته التي أنزله الله إياها عند إبطال القياس الذي ذكره في التسوية بين قبره ﷺ وقبر غيره، فالله المستعان.

قال دحلان: وأما ثبوت زيارة قبر النبي ﷺ فقد جاء في السنة الصحيحة المتفق عليها الأمر بزيارة القبور، فقبر نبينا منها أولى وأحرى وأحق وأعلى. انتهى.

فيقال: هذا القياس باطل لوجود الفارق بينه وبين غيره ﷺ، أما زيارة القبور فقد نهى عنها ﷺ في أول الإسلام لما اعتاده المشركون من جعل الوسائط بينهم وبين الله لطلب التقريب لهم والشفاعة عند الله،



فلما تمكن الإسلام في قلوب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأبطل الإسلام ما يعتقده المشركون وعقلوا عن الله أمره قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**»(١) . ومقصودها الإحسان إلى الميت بالدعاء له والترحم عليه، وتذكر الآخرة وهذا حق للميت عند قبره، وأما حقوق النبي ﷺ فهي واجبة على كل مسلم في كل زمان ومكان، فإن الله أوجب الإيمان به ومحبته وطاعته وموالاته ونصرته واتباعه، وأمر بالصلاة والسلام عليه في كل مكان، وبسؤال الله له الوسيلة عند كل أذان، وبذكر فضائله ومناقبه وما يعرف به قدر نعمة الله ببعثته إلى أهل الأرض، وأن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إرسال محمد ﷺ إليهم وأنه هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه لا يؤمن العبد حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، بل حتى يكون أحب إليه من نفسه، إلى غير ذلك من حقوقه، وكلها مشروعة في جميع البقاع ليس فيها شيء يختص بالقبر ولا بما هو قريب من القبر، ولا شرع للناس أن يكون قيامهم بهذه الحقوق عند القبر أفضل من قيامهم بها في بلادهم، بل المشروع أن يقوموا بها في كل مكان، ومن قام بها عند القبر وفتر عن القيام بها في بلده كما يوجد في بعض الناس فحالته منقوصة غير محمودة وصاحبها مبخوس الحظ ناقص النصيب، بخلاف من منَّ الله عليه فجعل محبته وثناءه وتعظيمه ودعاءه للرسول في بلده مثل ما إذا كان بالمدينة النبوية عند قبره أو أعظم فهذه هي الحالة المحمودة المشروعة وهي حال الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، ولهذا لم يكونوا يأتونه لأن قيامهم بما يجب من حقوق الرسول في جميع الأمكنة سواء، وقد نهى ﷺ عن تخصيص القبر

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢٣).



بذلك، وأن يتخذ عيداً ومسجداً كما سنورد الأحاديث الثابتة في النهي عن ذلك ـ إن شاءالله تعالى ـ لأنه مظنة أن يُتخذ وثناً ويفضي إلى الشرك، ونحن بحمد الله لا ننكر الزيارة الشرعية، بل إذا شد الرحل إلى مسجده ﷺ وصلى فيه ثم أتى إلى الحجرة فسلم على النبي ﷺ وعلى صاحبيه كما فعل ابن عمر وأنس بن مالك، فهذا بحمد الله لا ننكره، وأما شد الرحال إلى زيارة المشاهد وقبور الأنبياء والصالحين فبدعة سوداء وعماوة ظلماء نسأل الله السلامة حيث لم تفعل في القرون المفضلة، فلا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم. وأما الخلاف الذي ذكره بعض الفقهاء في جواز شد الرحل وتحريمه إلى قبور الأنبياء والصالحين فلنا بحمد الله غنية عنه، لقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**»[1] وبما عليه أهل القرون المفضلة ولكن هذا المشبه وأمثاله قد أولعوا بالبدع وألفوها. وأما دعواه الإجماع بقوله: قال صاحب الجوهر المنظم في زيارة قبر النبي ﷺ المكرم قد نقل جماعة من الأئمة حَمَلةِ الشرع الشريف الذين عليهم المدار والمعول الإجماعَ، وإنما الخلاف بينهم في أنها واجبة أو مندوبة، فمن خالف في مشروعية الزيارة فقد خرق الإجماع. انتهى.

فنقول: هذه دعوى كاذبة، وعن التحقيق عاطلة، وقد قال الإمام أحمد: من ادعى الإجماع في وقتنا فهو كاذب. وقال ابن شريح: الإجماع هو الحق فأينما وجد الحق فهناك الإجماع. وأما الإجماع المتداول في الاحتجاج فإنما هو بناء على اختيار المستدل به، فقد أراد به هذا وأمثاله التلبيس على العوام حين تدهمهم داهمة دعوى الإجماع، وقد اتفق العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على أن الإجماع المعتبر الذي يصح أن

(١) تقدم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

يكون دليلًا هو إجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن تبعهم بإحسان وهو الذي يستند إلى الكتاب والسنة كما أشار إلى ذلك ابن شريح ـ رحمه الله ـ وأما ما ذكره هذا الملحد من الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ فقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أحمد بن عبدالحليم: اعلم أنه لم يثبت عن النبي ﷺ حديث واحد في زيارة قبر مخصوص، ولا دل في ذلك شيء لا لأهل الصحيح ولا لأهل السنن ولا للأئمة المصنفين في المسانيد، وإنما روى ذلك من جمع الموضوع وغيره، وأجلّ حديث روى في ذلك ما رواه الدارقطني وهو ضعيف باتفاق أهل العلم، وأما الأحاديث المروية في زيارة قبر المصطفى ﷺ كقوله: «من زارني وزار أبي»[1] وقوله: «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»[2] . وقوله: «من حج ولم يزرني فقد جفاني»[3] . ونحو هذه الأحاديث فكلها مكذوبة موضوعة. وكذلك قال الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني: أكثر متون الأحاديث المروية في زيارة قبر المصطفى موضوعة، وكذلك أطنب الحافظ العلامة ابن عبدالهادي في «الصارم المنكي» في ردها وتضعيفها ووضعها. . . انتهى.

والصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، وقد كان القبر الشريف خارجاً عن المسجد في

---

(١) وله تتمة وهي «إبراهيم في عام واحد دخل الجنة» قال الشيخ إسماعيل العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٤٩٠): «قال النووي في شرح المهذب آخر الحج: موضوع لا أصل له. وقال ابن تيمية: موضوع، ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث».

(٢) أخرجه البيهقي (٥/ ٢٤٦) والدارقطني (٢/ ٢٧٨) من حديث ابن عمر وفي سنده حفص بن أبي داود، قال الحافظ في «التقريب»: متروك الحديث.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٤٨٠) وقال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٣/ ٢٣٧): موضوع.



حجرة عائشة إلى زمن الوليد بن عبدالملك، ولم يعرف أن أحداً من الصحابة دخل إليه، وإنما يصلون ويسلمون عليه إذا دخلوا مسجده ﷺ، لأنهم أعلم بالله وبما أمرهم به ﷺ ورضي عنهم أجمعين، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر يفعله، قال عبيدالله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف. قال عبيدالله: ما نعلم أحداً فعل ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف للدعاء إذا سلم، قال شيخ الإسلام: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضاً، وذكر إسماعيل بن إسحاق في المبسوط، والقاضي عياض وغيرهما عن مالك، قال: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. وذكر القاضي عياض في «الشفاء» عن مالك ـ رحمه الله ـ أنه كره أن يقال: زرنا قبر النبي ﷺ، قال القاضي: صح عندي أن منع مالك وكراهته له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ لقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(١)] . فمن أضاف هذا اللفظ إلى القبر اشتبه بفعل أولئك، وقال مالك: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر يقف عند قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فقيل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٥٤) مسنداً من حديث أبي هريرة، وأخرجه مالك (٣٧٦) مرسلًا من وجه آخر واللفظ له.

وقد استجاب الله سبحانه لدعاء نبيه ﷺ وجعل السلطة فيه لدولة لا تضل الناس بالبدع والخرافات عند القبور.

ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده. انتهى. فإذا عرفت أن هذا مذهب مالك المحقق عند أصحابه، فقد أورد دحلان في مبحث التوسل بالنبي ما أشار به مالك على الخليفة المنصور لما زار قبر النبي ﷺ، فأردت إيراد الحكاية هنا عند ذكر مذهب مالك المحقق عند أصحابه ليعلم قول المحققين أن الحكاية غير محفوظة ولفظها: قال المنصور لمالك: يا أبا عبدالله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو؟ فقال مالك: لَمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله بل استقبَله واستشفع به ليشفعه الله فيك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، انتهى.

قال شيخ الإسلام تقي الدين ـ رحمه الله ـ لما ذكر أشياء عن السلف عامة وعن مالك خاصة قال: وهذا الذي ذكرنا عن السلف وعن مالك يبين حقيقة الحكاية التي ذكرها القاضي عن محمد بن حميد ـ وساقها ـ قال: فهذه الحكاية على هذا الوجه إما أن تكون ضعيفة، وأما أن تفسر بما يوافق مذهب مالك إذ قد يُفهم منها ما هو خلاف مذهبه المعروف بنقل الثقات من أصحابه فإنه لا يختلف مذهبه أنه لا يستقبل القبر عند الدعاء، وقد نص أنه لا يقف للدعاء عنده مطلقاً، إلى أن قال: وأما الحكاية في تلاوة مالك هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، فهو ـ والله أعلم ـ باطل، فإن هذا لم يذكره أحد من الأئمة فيما أعلم، ولم يذكر عن أحد منهم أنه استحب أن يُسأل بعد

الموت الاستغفار ولا غيره وكلامه المنصوص عنه وعن أمثاله ينافي ذلك، وإنما يعرف مثل هذا في حكاية الأعرابي التي ذكرها بعض المتأخرين واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي لاسيما مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعاً مندوباً لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم، فقول مالك في هذه الحكاية إن كان ثابتاً عنه معناه إنك إذا استقبلته وصليت عليه وسلمت وسألت الله له الوسيلة يشفع فيك يوم القيامة، وكذلك ما نقل عن ابن وهب: إذا سلم على النبي ﷺ ودعا ـ يعني يدعو للنبي وصاحبيه ـ فهذا هو الدعاء المشروع هناك كالدعاء عند زيارة قبور المسلمين وهو الدعاء لهم فإنه أحق الناس أن يصلى عليه ويدعى له بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، وبهذا تتفق أقوال مالك، ويفرق بين الدعاء الذي أحبه والدعاء الذي كرهه وذكر أنه بدعة. انتهى ملخصاً.

ويدل لذلك فعل ابن عمر إذا قدم من سفر سلم على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر وعمر ثم ينصرف، قال عبيدالله بن عمر: ما نعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وقال الحافظ محمد بن أحمد بن عبدالهادي في كتابه «الصارم المنكي في الرد على السبكي»: محمد بن حميد راوي هذه الحكاية ـ أعني حكاية أبي جعفر مع الإمام مالك ـ هو محمد بن حميد الرازي لا المعمري كما ظنه السبكي، قال: وقد تكلم في محمد بن حميد هذا غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب، قال يعقوب بن شيبة: محمد بن حميد الرازي كثير المناكير. وقال البخاري: حديثه فيه نظر. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال أبو العباس محمد بن أحمد الأزدي: سمعت إسحاق بن منصور يقول: أشهد على محمد بن حميد وعبيد بن إسحاق العطار بين يدي الله

أنهما كذابان. وذكر عن جماعة كثيرة نحو ذلك، فهذا يبين عدم صحة هذه الحكاية قطعاً والله أعلم.

وهذا المشبّه لما أورد أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ قال: إن استقبال القبلة حال الدعاء أفضل من استقبال القبر قال: وهذا النقل غير صحيح، لأن أبا حنيفة روى في مسنده عن ابن عمر أنه قال: من السنة استقبال القبر المكرم وجعل الظهر للقبلة. وهذا كذب ظاهر مخالف لفعل ابن عمر، ولقول الإمام الثابت عنهما، ولكن هذه حال من ليس على صراط مستقيم.

قال شيخ الإسلام في رده على ابن الأخنائي: قال: وروى أبو يعلى في مسنده، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحباب، ثنا جعفر بن إبراهيم من ولد ذي الجناحين، حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها، فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ، قال: «**لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**»[1] . وهذا الحديث مما خرجه الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي فيما اختاره من الأحاديث الجياد المختارة الزائدة على ما في الصحيحين، وهو أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم وهو قريب من تصحيح الترمذي، وأبي حاتم البستي ونحوهما، فإن الغلط في هذا قليل ليس هو مثل تصحيح الحاكم، فإن فيه أحاديث كثيرة يظهر أنها كذب موضوعة، فلهذا

(١) أخرجه أحمد (٨٤٤٩) وأبو داود (١٧٤٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وحيثما كنتم فصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني». واللفظ لأحمد.

انحطت درجته عن درجة غيره، فهذا علي بن الحسين زين العابدين وهو من أجل التابعين علماً وديناً حتى قال الزهري: ما رأيت هاشميًّا مثله، وهو يذكر هذا الحديث بإسناده ولفظه: «**لا تتخذوا بيتي عيداً فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**»[١] . وهذا يقتضي أنه لا مزية للسلام عليه عند بيته كما لا مزية للصلاة عليه عند بيته، بل قد نهى عن تخصيص بيته بهذا، وهذان حديثا الصلاة مشهوران في سنن أبي داود وغيره من حديث عبدالله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا بيتي عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[٢] . وهذا حديث حسن، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع الصائغ فيه لين لا يمنع الاحتجاج به، قال يحيى بن معين: هو ثقة. وحسبك بابن معين موثقاً. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ هو لين تعرف وتنكر. قلت: ومثل هذا يخاف أن يغلط أحياناً فإذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ وهذا له شواهد متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع، كما رواه سعيد بن منصور في سننه، حدثنا حبان بن علي، حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**»[٣] . وقال سعيد أيضاً: حدثنا عبدالعزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة

---

(١) تقدم نحوه ص ٤٠ .

(٢) تقدم نحوه ص ٤٠ .

(٣) تقدم نحوه ص ٤٠ .

يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء، فقلت: لا أريده، فقال لي: رأيتك عند القبر، فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم عليه، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**» ما أنتم ومن بالأندلس منه إلا سواء.

ورواه القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»[1] ولم يذكر هذه الزيادة وهي قول: «ما أنتم ومن بالأندلس منه إلا سواء»؛ لأن مذهبه أن القادم من سفر والمريد للسفر سلامه هناك أفضل، وأن الغرباء يسلمون إذا دخلوا وخرجوا، ولهذا مزية على من بالأندلس، والحسن بن الحسن وغيره لا يفرقون بين أهل المدينة والغرباء ولا بين المسافر وغيره، فرواه القاضي إسماعيل عن إبراهيم بن حمزة حدثنا عبدالعزيز بن محمد عن سهيل بن أبي سهيل قال: جئت أسلِّم على النبي ﷺ وحسن بن حسن يتعشى في بيت عند بيت النبي ﷺ، فدعاني؟ فقال: ادن فتعش، قال قلت: لا أريده، قال لي: ما لي رأيتك وقفت عند القبر؟ قلت: وقفت أسلِّم على النبي ﷺ، قال: إذا دخلت المسجد فسلم عليه، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**صلوا في بيوتكم ولا تجعلوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**»[2]. ولم يذكر قول الحسن، فهذا فيه أنه أمره أن يسلم عند دخول المسجد، وهو السلام المشروع الذي روي عن النبي ﷺ وجماعة من السلف، كانوا يسلمون عليه إذا دخلوا المسجد وهذا مشروع في كل مسجد، وهذا

---

(١) تقدم نحوه ص ٤٠.

(٢) تقدم نحوه ص ٤٠.

الحسن بن الحسن هو الحسن المثنى وهو من التابعين وهو نظير علي بن الحسين هذا ابن الحسين وهذا ابن الحسن، وقد ذكر القاضي عياض - رحمه الله - هذا عن الحسن بن علي نفسه - رضي الله عنهم أجمعين - فقال عن الحسن بن علي عن رسول الله ﷺ قال: «**حيثما كنتم فصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني**»[1] . قال: وعن الحسن بن علي قال: إذا دخلت المسجد فسلم على النبي ﷺ فإن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا بيتي عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ حيثما كنتم**»[2] . انتهى. قال شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن أبابطين، فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت - رضي الله عنهم - الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب بالنسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط، قال شيخ الإسلام: ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كرهوا قصد دعاء الله عند قبره ﷺ، فكيف بدعائه نفسه، وكان أحدهم إذا سلم عليه وأراد أن يدعو الله استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر، ونص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة إذا سلم على النبي ﷺ، وأراد أن يدعو الله لأن الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ الآية. وفي الترمذي وغيره: «**الدعاء هو العبادة**»[3] ، فإذا عرفت طريق السلف ومن بعدهم من أئمة الدين وأنهم لم يتحروا الدعاء عند قبره ﷺ، ولم تشد الرحال في القرون الثلاثة، إلى ذلك أخذاً بما ورد في الصحيحين

---

(١) تقدم نحوه ص ٤٠.

(٢) تقدم نحوه ص ٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٨٥) و(٣١٧٠) و(٣٤٩٤)و وأبو داود (١٢٦٤) وأحمد (١٧٦٢٩)، و(١٧٦٦٠) و(١٧٦٦٥) و(١٧٧٠٥)، و(١٧٧٠٩) وابن ماجه (٣٨١٨) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

من رواية أبي هريرة[١] وأبي سعيد الخدري، ولفظ حديث أبي سعيد عن قزعة عن أبي سعيد قال: سمعت منه حديثاً فأعجبني فقلت: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: أفأقول عليه ما لم أسمع! سمعته يقول: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى**». وسمعته يقول: «**لا تسافر المرأة يوماً من الدهر إلا ومعها زوجها أو ذو محرم منها**»[٢] . ولفظ أبي سعيد هذا الثابت في الصحاح صريح في النهي، وهو صريح في أن رسول الله ﷺ نهى عن السفر إلى غير الثلاثة، وتبين بذلك أن من قال أن السفر إلى غير ذلك جائز أو مكروه، فهو مخطىء إلا أن يكابر ويشرع للناس ديناً لم يأذن به الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ . وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٣] . وفي لفظ في الصحيحين: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٤] . وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أن شد الرحال إلى المشاهد وإلى قبور الأنبياء والصالحين لأجل تعظيمهم ليس من عمل المصطفى ولا من عمل الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، بل هو مبتدع محدث مردود على صاحبه بحديث رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا. . .**»[٥] . وفي رواية: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٦] . وقول هذا الضال

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٢)، و(١٧٢١)، و(١٨٥٨)، ومسلم (٢٣٨٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (٣٢٤٢).

(٤) ذكره البخاري (باب النجش) و(باب إذا جتهد الحاكم) معلقاً، ومسلم (٣٢٤٣).

(٥) تقدم قبله.

(٦) تقدم قبله.

إنه يلزم من قصر الحديث على المساجد الثلاثة أن لا تشد الرحال إلى مشاعر الحج والجهاد والهجرة والتجارة، فهذا من جهله وفساد تصوره وعقله، فإن السفر إلى الحج والجهاد والهجرة مما فرض الله السفر إليه وأوجبه على عباده، وكذا التجارات أباح السفر إليها وأذن فيها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. ومقصود هؤلاء الملاحدة الزيارة البدعية التي لم يأذن رسول الله ﷺ فيها. وما أحسن ما قال الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن القيم ـ رحمه الله ـ في «إغاثة اللهفان»، قال: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به وما نهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ويجتمعون أياماً كاجتماعهم للعيد وأكثر، وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[١]. وفي صحيحه عن ثمامة بن شفي قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ «يأمر بتسويتها»[٢]، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٠٨).

الحديثين، ويرفعونها من الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، ونهى عن الكتابة عليه، كما روى أبو داود في سننه عن جابر أن رسول الله ﷺ نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها[١] . قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها ترابها، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر ويكتب عليه أو يزاد عليه[٢] ، وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار، إلى أن قال: فانظر هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه. ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العد عن حصره، فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند البيت الحرام، ويرون سِدانتها أفضل من خدمة المساجد، فالويل عندهم لقيمها ليلة يطفيء القنديل المعلق عليها، ومنها: النذر لها ولسدنتها، ومنها: اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكربات وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم ويجار الخائف إلى غير ذلك، ومنها: الدخول في لعن الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج، ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها، ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٢) عدا قوله: «وأن يكتب عليها». وأخرجه بتمامه الترمذي (٢٧٢) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه النسائي (٢٠٠٠) وأبو داود (٢٨٠٧).

بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة، ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها، ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها، ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع، ومنها: أن الذي شرعه رسول الله ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون وعكسوا الدين وجعلوا المقصود من الزيارة الشرك بالميت ودعائه والدعاء به، وسألوه حوائجهم واستنزال البركات منه، ونصره لهم على الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت، فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان التي شرعها الله على لسان رسوله ثم وازن بينها وبين زيارة أهل الشرك التي شرعها لهم الشيطان، واختر لنفسك. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد**»[١] . رواه مسلم في صحيحه. وعنها أيضاً أن جبرائيل أتاه فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قال: قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: «**قل السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاءالله بكم للاحقون**»[٢] . وفي صحيحه أيضاً عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السلام على أهل الديار**». وفي لفظ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٦١٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٦١٩).

«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاءالله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[١] . وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن زارها فليزر ولا تقولوا هُجراً»**[٢] . رواه أحمد والنسائي، وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدًّا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجراً، فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله فإن زيارته غير مأذون فيها، ومن أعظم الهُجر الشرك عندها قولاً وفعلًا. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور فإنها تذكر الموت»**[٣] . وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»**[٤] . رواه أحمد. وعن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم فقال: **«السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر»**[٥] . رواه أحمد والترمذي وحسنه. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها، فإنها عبرة»**[٦] . فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله لأمته وعلمهم إياها هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه، وما أحسن ما قال الإمام

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢٠) وليس عنده: «بكم».

(٢) أخرجه النسائي (٢٠٠٦) وأحمد (٢١٩٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (١١٧٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٩٧٣) وانفرد به الترمذي وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) أخرجه أحمد (١٠٩٠١) عن أبي سعيد الخدري.

مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: لن يصلح آخر هذه الآية إلا ما أصلح أولها، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك، ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا، قال سلمة بن وردان: رأيت أنس بن مالك يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو. ونص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره: «الدعاء هو العبادة»[١]، فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحُّم عليهم، وبالجملة فالميت قد انقطع عمله فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع، ولهذا شرع في الصلاة عليه والدعاء وجوباً أو استحباباً ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي، قال عوف بن مالك: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: **«اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلًا خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر، وعذاب النار** حتى تمنيت أن أكون أنا الميت، لدعاء رسول الله ﷺ على ذلك الميت». رواه مسلم[٢]. وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول في صلاته على الجنازة: **«اللهم أنت ربها وأنت خلقتها، وأنت هديتها**

---

(١) تقدم ص ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٠٠) و(١٩٥٧).

للإسلام، وأنت قبضت روحها، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها، جئنا شفعاء فاغفر له»[١] . رواه أحمد، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»[٢] . وقالت عائشة وأنس عن النبي ﷺ قال: «**ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه**»[٣] . رواه مسلم، وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئاً إلا شفَّعهم الله فيه**»[٤] رواه مسلم. فهذا مقصود الصلاة على الميت وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه، ومعلوم أنه في قبره أشد حاجة منه على نفسه، فإنه حينئذ معرض للسؤال وغيره، وقد كان رسول الله ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: «**سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل**»[٥] . فعلم أنه أحوج إلى الدعاء بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به ونشفع له لا نستشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى، فبدل أهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت وإحساناً إلى الزائر، وتذكيراً بالآخرة سؤال الميت والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وخضوع القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد وأوقات الصلاة، ومن المحال أن يكون دعاء الموتى والدعاء بهم أو

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٨٩) (٨٣٩٦) وأبو داود (٢٧٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٨٤) وابن ماجه (١٤٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٥٧٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٨٠٤).

الدعاء عندهم مشروعاً وعملًا صالحاً وتُصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فهذه سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها فضلًا عن أن يصلوا عندها أو يسألوا الله بأصحابها أو يسألوهم حوائجهم فليوقفونا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك، بل يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان أكثر حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول الله ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك بل فيها من خلاف ذلك كثير، كما قدمناه في الأحاديث المرفوعة، قال ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله وما عليه أهل البدع والشرك اليوم في هذا الباب وغيره علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف من البعد أبعد مما بين المشرق والمغرب وأنهم على شيء والسلف على شيء كما قيل:

سارت مشرقة وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب

والأمر والله أعظم من ذلك، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن أم الدرداء قالت: دخل علي أبو الدرداء مغضباً فقلت: مالك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعاً[١] . وروى مالك في الموطأ عن عمر أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف

(١) أخرجه البخاري (٦١٣).

شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة[١] ـ يعني الصحابة رضي الله عنهم ـ. وقال الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت[٢] . ذكره البخاري. وفي لفظ آخر: ما كنت أعرف شيئاً على عهد رسول الله ﷺ إلا قد أنكرته اليوم. وقال الحسن البصري: سأل رجل أبا الدرداء فقال: رحمك الله لو أن رسول الله ﷺ بين أظهرنا هل كان ينكر شيئاً مما نحن عليه؟ فغضب واشتد غضبه، فقال: وهل كان يعرف شيئاً مما أنتم عليه؟ وقال المبارك بن فضالة: صلى الحسن الجمعة وجلس يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: تلومنني على البكاء ولو أن رجلًا من المهاجرين اطلع من باب مسجدكم ما عرف شيئاً مما كان عليه على عهد رسول الله ﷺ إلا قبلتكم هذه. انتهى ملخصاً. فهذا ما تيسر جمعه من إبطال شبهة هذا الضال من إيجاب زيارة القبور البدعية أو ندبتها، والله المستعان.

---

(١) أخرجه مالك (١٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٩).

الغلـــو

ثم قال دحلان: وهنا أمران لابد منهما أحدهما: وجوب تعظيم النبي ﷺ ورفع رتبته على سائر الخلق، فمن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من رتبته فقد عصى أو كفر، ومن بالغ في تعظيمه ﷺ بأنواع التعظيم ولم يبلغ به ما يختص بالباري سبحانه فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً، وهذا القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط انتهى.

فنقول: اعلم أن تعظيم الرسول من العبادات التي مبناها على الاتباع لا على الابتداع، وقد ذكرنا بعض حقوقه فيما تقدم، وأما هذا الضال فقد عظم الرسول بما حضره ونهى عنه وأبدى وأعاد فيه من النهي عن الغلو والإطراء المذموم، فروى الإمام أحمد وابن ماجة عن ابن عباس ولفظ ابن ماجة قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «**القط لي حصاً**» فلقطت له سبع حصيات كئن هن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[1]. قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. انتهى. وأخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**»[2]. والإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. قاله أبو السعادات وقد ذكر الله سبحانه عبوديته في أربعة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٠) والنسائي (٣٠٠٧) و(٣٠٠٩) وأحمد (١٧٥٤) و(٣٠٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٩).



مواضع من كتابه العزيز في مقام التحدي. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية. وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الآية. وفي مقام التنزيل قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. وفي مقام الدعاء والتضرع قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت قال ﷺ: «**أجعلتني لله نداً، بل ما شاء الله وحده**»[١]. ولما نزلت براءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ على رسول الله ﷺ وأخبرها بها قال لها أبو بكر: قومي إلى رسول الله ﷺ فقبلي رأسه، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمد إلا الله[٢]. وفي رواية: بحمد الله لا بحمدك[٣]. قال حبان: فقلت لابن المبارك: إني لأستعظم هذا القول. قال: اولت الحمد أهله. وفي الحديث الذي رواه أحمد: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. قال عليه السلام: «**عرف الحق لأهله**»[٤]. فهذا شأنه ﷺ في حال حياته. ثم إنه بأبي هو وأمي عليه السلام أعاد النهي عن الغلو والإطراء عند وفاته. فروى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك: «**لعنة**

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٢) و(١٨٦٣) و(٢٤٣٠) و(٣٠٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٦٧) و(٣٨٢٦) و(٤٣٨١) مطولاً.
(٣) أخرجه أحمد (٢٥٨٢٣) و(٢٥٨٢٤) مطولاً.
(٤) أخرجه أحمد (١٥٠٣٥).

الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[١] . ولمسلم عن جندب بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»[٢] .
وروى مالك في الموطأ مرسلًا وابن أبي شيبة مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣] . وقد استجاب الله دعاء رسول الله ﷺ فمنع الناس من الوصول إلى قبره[٤] . قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

وروى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧) و(١٢٤٤) و(١٣٠٠١) و(٣١٩٥) و(٤٠٨٧) و(٤٠٨٩) و(٥٣٦٨)، ومسلم (٨٢٣) و(٨٢٦).
(٢) أخرجه مسلم (٨٢٧).
(٣) أخرجه أحمد (٧٠٥٤) مسنداً مرفوعاً من حديث أبي هريرة. وأخرجه مالك (٣٧٦) مرسلًا من وجه آخر.
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٩) و(٤١٦) و(١٢٥٥) و(٣٥٨٤)، ومسلم (٨٢٢).
(٥) ولعل من بركة دعائه ﷺ أن الله سبحانه جعل الولاية على قبره لحكومة إسلامية طهرته=

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل، وذلك في مرض موته كما جاء مبيَّناً في الصحيح. وقال سبحانه وبحمده لنبيه ﷺ: ﴿قل لا أملك لكم ضـرًّا ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾. ﴿قل إني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضـرًّا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ الآية. فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات المحكمات وما أشبهها والأحاديث الصحيحة المذكورات، وقول هذا الضال وصاحب البردة والبرعي وأشباههم ممن غلا في النبي ﷺ حتى جعلوه في توحيد العبادة الذي هو توحيد الألوهية بمنزلة رب الأرض والسموات فطلبوا منه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وقضاء الحاجات وصرفوا له خالص العبودية التي تختص بباري البريات، ويوجد ذلك في أشعار المداحين لسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذين جاوزوا الحد في مدحه وعصوه في نهيه عن الغلو والإطراء، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد والغلو الزائد مع عصيانهم له في أمره ونهيه فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له وأبعدهم عن مقاصده. وقد ذكر هذا الضال عن الزرقاني في حكاية الأعرابي التي جعلها من أدلة الدين لما قال الأعرابي:

إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم أعتقوهم عتق أحرار

فأتبعه الزرقاني:

وأنت يا سيدي أولى بذلك ما ... قد شبت في الرق فاعتقني من النار

وذكر في رسالته أبياتاً وخرافات على هذا النمط وهذه طريقة

= من الشرك ولم تفعل كما يفعل البعض من بناء القباب وتعظيم القبور وعبادتها لإضلال العامة.

الغلاة المارقين من الدين قبله، كقول البوصيري في مدحه النبي واستغاثته به ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به	**سواك عند حلول الحادث العمم**
ولن يضيق رسول الله جاهك بي	**إذا الكريم تجلى باسم منتقم**
فإن لي ذمة منه بتسميتي	**محمد وهو أوفى الخلق بالذمم**
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي	**فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم**

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك منها: أنه نفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث إلا النبي ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو. الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله وذلك هو الشرك في الألوهية. الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسول الله البيت... وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه وهو الجاه والشفاعة عند الله بغير إذنه، وذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة، فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء. الرابع: قوله فإن لي ذمة.. إلخ كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة لا بمجرد الاشتراك بالاسم مع الشرك. الخامس: قوله: إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي... البيت. تناقض عظيم وشرك ظاهر فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلًا وإحساناً وإلا فيا هلاكه. فيقال كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه أن يتفضل عليك، فإن كنت تقول إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة فهلا سألتها ممن له الشفاعة

جميعاً الذي له ملك السموات والأرض الذي لا تكون إلا من بعد إذنه، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله، وإن قلت ما أريد إلا جاهه وشفاعته قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين فهذا مضاد لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾. فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا؟ وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي ويتفضل علي بجاهه وشفاعته قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله وذلك هو محض الشرك. السادس: في الأبيات من التبري من الخالق تعالى وتقدس، والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة، ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾. وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾. فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في شفاعته فيا هلاكه. قيل: المراد بذلك سؤاله وطلب الفضل منه كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء والسؤال، وهو كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. ومن شعر البرعي قوله:

ماذا تعامل يا شمس النبوة من ... أضحى إليك من الأشواق في كبد
فامنع جناب صريع لا صريخ له ... نائي المزار غريب الدار مبتعد

حليـــف ودك واه الصبر منتظـــرٌ ... لغارة منـك يـا ركنـي ويـا عضـدي
أسير ذنبـــي وزلاتي ولا عمـــل ... أرجـو النجـاة بـه إن أنـت لم تجـد

وجرى في شركه إلى أن قال:

وحـل عقـدة كـربي يـا محمـد مـن ... هـم على خطـرات القلـب مطـرد
أرجـوك في سكـرات المـوت تشهـدني ... كيمـا يهـون إذ الأنفـاس في صعـد
وإن نـزلـت ضريحـاً لا أنيـس بـه ... فكـن أنيـس وحيـد فيـه منفـرد
وارحـم مـؤلفهـا عبـدالـرحيـم ومـن ... يليـه مـن أهلـه وانعشـه وافتقـد
وإن دعـا فـأجبـه واحـم جـانبـه ... مـن حـاسـد شـامـت أو ظـالم نكـد

وقوله من أخرى:

يـا رسـول الله يـا ذا الفضـل يـا ... بهجـة الحشر جـاهـاً ومقـامـا
عـد على عبـدالـرحيـم الملتجـي ... بحمـا عـزك يـاغـوث اليتامـا
وقلنـي عثـرتي يـا سيـدي ... في اكتسـاب الـذنـب في خمسين عـامـا

وقوله:

يـا سيـدي يـا رسـول الله يـا أملي ... يـا مـوئلي يـا مـلاذي يـوم يلقـاني
هبني بجاهك ما قدمت من زلل ... جـوداً ورجـح بفضـل منـك ميـزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... مـن الخطـوب ونفـس كـل أحـزان
فـأنـت أقـرب مـن تـرجـى عـواطفـه ... عنـدي وإن بعـدت داري وأوطـاني
إني دعـوتـك مـن نيـابتـي بـرع ... وأنـت أسمـع مـن يـدعـوه ذو شـان
فامنع جنابي وأكرمني وصن نبـي ... بـرحمـة منـك وكـرامـات وغفـران

لقد أنسانا هذا ما قبله وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها وترك الاسم إذ في الاسم نوع تميز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل وقبوله عند ذوي العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى عليه السلام كفر، فلو أتاهم

بدعوى النصارى اسماً ومعنىً لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعي وأضرابه وترك الاسم للنصارى، وإلا فما ندري ما أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب، فالله المستعان. وهذا كثير في أشعار المداحين للنبي ﷺ وهو حجة أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله ويحتجون بأشعار هؤلاء ولم يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبي ﷺ بل يطلبون مثل ذلك من غيره كما حدَّث بعض الثقات أنه رأى في راية صاحب مشهد من المشاهد هذه راية البحر التيار به أستغيث وأستجير وبه أعوذ من النار، وقال بعضهم في قصيدة في بعض آلهتهم:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي	يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته	وأنت لي ملجأ من حادث الدهر
وامنن علي بتوفيق وعافية	وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أكف الظالمين إذا	امتدت بسوء وأمر مؤلم نكرى
فإني عبدك الراجي بودك ما	أملته يا صفي السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندري أي معنى اختص به الخالق سبحانه وتعالى وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث بعد هذه المنزلة لخالقه من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبدوه لشيء من هذا، وكثير من عبّاد القبور ينادون الميت من مسافة شهر أو أكثر يسألونه حوائجهم ويعتقدون أنه يسمع دعائهم ويستجيب لهم وتسمع عندهم حال ركوب البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد من مرض أو كسوف أو ريح شديدة أو غير ذلك، فالولي في ذلك نصب عيونهم والاستغاثة به هي ملاذهم ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لاحتمل مجلدات، وسيأتيك طرف من جنس

هذا في آخر الرسالة سقناه ليعرف المؤمن نعمة الله عليه إذا سمع فيزداد لله شكراً. فقول هذا الملحد: ومن بالغ في تعظيمه ﷺ بأنواع التعظيم إلى آخر ما هذى به، فنقول: كذبت أما في حق الرسول فقد أفرطت، وأما في حق الله فقد فرَّطت، وهذا من تخليطه وتخبيطه إذ قصر حق الباري سبحانه على الإقرار بما أقر به المشركون، ولم ينكروه وإنما قاتلهم ﷺ على توحيد العبادة إذ قال لهم: «**قولوا لا إله إلا الله**»[1]، فقالوا أجعل الآلهة التي نجعلها وسائط تقربنا إلى الله إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب. فعلم المشركون بعقولهم أن المراد بهذا العمل بما تقتضيه من إبطال الوسائط بينهم وبين الله ولهذا قال شيخنا رحمه الله: فقبح الله من أبو جهل وأضرابه أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله.

وسنورد أدلة التوحيد في مبحثه إن شاءالله تعالى.

وأما إفراطه في حق المصطفى ﷺ فقد سلك فيه مسلك البرعي والبوصيري وأضرابهما غير أنه أتى بعبارة توهم الإغمار بقوله: ومن عظم رسول الله ﷺ بأنواع التعظيم... إلخ، فقد أصاب الحق فلعمر الله أن من عظمه بما يستحقه مما أمر الله به ورسوله فقد أصاب الحق وحافظ على ما أمر به ﷺ ورضيه لنفسه فعلينا أن نعمل بما أمرنا به ونتبع ولا نبتدع وقد تقدم جملة من حقوقه بأبي هو وأمي ﷺ فيما تقدم. وأما هذا الضال فقد أفرط في الغلو والإطراء وارتكب ما نهى عنه ﷺ من ذلك وجعل له ﷺ وللأنبياء والمرسلين والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين خالص عبودية رب العالمين يجعلهم وسائط بين الخلق وبين الله فطلبوا منهم غفران الذنوب وتفريج الكروب وإغاثة اللهفات وقضاء الحاجات وهذا هو التعظيم الذي قصده هذا الضال.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٤٨) و(١٦٠٠٨) و(١٨٢٣٤) و(٢٢٠٦٩) و(٢٢١٠٨) مطولاً.

يدل عليه قوله في أثناء رسالته: نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية، ورحم الله البوصيري حيث يقول:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم　　واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس في تعظيمه بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات، وكذلك كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين. انتهى.

فانظر إلى هذا الغلو العظيم والشرك الوخيم يقول هذا الملحد: إذا لم تصف الرسول بصفات الربوبية بأن لم تعتقد أنه الله أو أنه ثالث ثلاثة أو أنه ولد الله فاعبده بجميع العبادات من الأقوال والأعمال والاعتقادات[١] بل لم يكفه ذلك حتى قال: بل هو من أعظم الطاعات والقربات وسيأتيك العجب في أثناء رسالته من الكفر والإشراك بما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا أن صرفوا خالص حق الله بل أخص حقه من العبادة وهو الدعاء كما قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٢] لمن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً وجعلوا الله نسياً منسيًّا فلعنة الله على الظالمين، وسبب هذا إعراضهم عن كتاب الله، وتأمل معانيه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾. وجمودهم على ما ألفوه ووجدوا عليه أسلافهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾. وقال الحافظ العلامة ابن عبدالهادي ـ قدس الله

(١) وصرف النظر عن وصفه بصفات الإلهية من دعائه والاستعانة به، لأنه لا يعرف إلا توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون من قبله.

(٢) تقدم ص ٤٣.

سره ونور ضريحه ـ في آخر كتابه «الصارم المنكي في الرد على السبكي»: فقول السبكي أن المبالغة في تعظيم الرسول ﷺ واجبة، يريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به، وأنه يعطي ويمنع ويملك لمن استغاث به النفع والضر وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين، وهذا الذي ذكره العلامة رحمه الله عن السبكي هو حقيقة ما قال هذا الضال وقصده ولم يفرق بين حق الله وحق رسوله بل جعل الحقين حقًّا واحداً فلله در الحافظ العلامة محمد بن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال في «الكافية الشافية» في الانتصار للفرقة الناجية:

يا من له عقل ونور قد غدا ... يمشي به في الناس كل زمان
لكننا قلنا مقالة صارخ ... في كل وقت بينكم بأذان
الرب رب والرسول فعبده ... حقًّا وليس لنا إله ثان
فلذاك لم نعبده مثل عبادة ... الرحمن فعل المشرك النصراني
كلا ولا نغلوا الغلو كما نهى ... عنه الرسول مخافة الكفران
لله حق لا يكون لغيره ... ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقًّا واحداً ... من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله ... وكذا الصلاة وذبح ذي قربان
وكذا السجود ونذرنا ويميننا ... وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا التوكل والإنابة والتقى ... وكذا الرجاء وخشية الرحمن
وكذا العبادة واستعانتنا به ... إياك نعبد ذان توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره ... دنيا وأخرى حبذا الركنان
وكذا التسبيح والتكبير و ... التهليل حق إلهنا الديَّان
لكنما التعزير والتوقير حق ... للرسول بمقتضى القرآن

والحب والإيمان والتصديق لا يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة لا تجملوها يا أولي العدوان
حق الإله عبادة بالأمر لا بهوى النفوس فذاك للشيطان
من غير إشراك به شيئاً هما سبب النجاة فحبذا السببان
ورسوله فهو المطاع وقوله المقبول إذ هو صاحب البرهان
والأمر فيه الحتم لا تخيير فيه عند ذي عقل وذي إيمان
فهو المطاع وأمره العالي على أمر الورى وأوامر السلطان
وهو المقدم في محبتنا على الأهلين والأزواج والولدان
وعلى العباد جميعهم حتى على النفس التي قد ضمها الجنبان
ونظير هذا قول أعداء المسيح من النصارى عابدي الصلبان
إنا تنقصنا المسيح بقولنا عبد وذاك غاية النقصان
لو قلتم ولد إله خالق وفيتموه حقه بوزان
وكذاك أشباه النصارى من غلوا في دينهم بالجهل والطغيان
صاروا معادين الرسول حقيقة في صورة الأحباب والإخوان
فانظر إلى تبديلهم توحيده بالشرك والإيمان بالكفران
فانظر إلى تجريده التوحيد من أسباب كل الشرك بالرحمن
واجمع مقالته وما قد قاله واستدع بالنقاد والوزان
عقل وفطرتك السليمة ثم زن هذا وذا لا تطغ في الميزان
فهناك تعلم أي حزبينا هو المتنقص المنقوص بالعدوان
رامي البرى بدائه ومصابه فعل المباهت أو قح الحيوان
كمعير للناس بالزغل الذي هو ضربه فاعجب لذا البهتان
والله ما قال الشيوخ وقال إلا كنتم معهم بلا كتمان
والله أغلاط الشيوخ لديكم عين الصواب ومقتضى البرهان
تبًّا لكم ماذا التنقص بعد ذا لو تعرفون العدل بالنقصان
والله ما يرضه جعلكم له ترساً لشرككم وللعدوان
وكذاك جعلكم المشايخ جنة لخلافه والقصد ذوا تبيان
والله ما عظمتموه طاعة ومحبة يا فرقة العصيان

أني وجهلكم به وبدينه ... وخلافكم للوحي معلومان
تقديمكم آراء الرجال عليه مع ... هذا الغلو فكيف يجتمعان
كفرتم من جرد التوحيد جهلاً ... منكم بحقائق الإيمان
لكن تجردتم لنصر الشرك والبدع ... المضلة في رضى الشيطان
والله لو يرضى الرسول دعاؤنا ... إياه بادرنا إلى الإذعان
والله ما يرضيه منا غير إخلاص ... وتحكيم إلى القرآن
ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه ... فعل النصارى عابدي الصلبان
ولقد نهانا أن نصير قبره ... عيداً حذار الشرك بالرحمن
ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثناً من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان
ولقد غدا عند الوفاة مصرحاً ... باللعن يصرخ فيهم بأذان
وعنى الأولى جعلوا القبور مساجداً ... وهم اليهود وعابدو الصلبان
ولولا ذاك أبرز قبره ... لكنهم حجبوه بالحيطان
قصدوا إلى تسنيم حجرته ... ليمتنع السجود له على الأذقان
قصدوا موافقة الرسول وقصده ... التجريد للتوحيد للرحمن
يا فرقة جهلت نصوص نبيهم ... وقصوده وحقيقة الإيمان
فسطوا على أتباعه وجنوده ... بالبغي والعدوان والبهتان
لا تعجلوا وتبينوا وتثبتوا ... فمصابكم ما فيه من جبران
قلنا الذي قال الأئمة قبلنا ... وبه النصوص أتت على التبيان
القصد حج البيت وهي فريضة ... الرحمن واجبه على الأعيان
ورحالنا شدت إليه من بقاع ... الأرض قاصيها كذاك الدان
من لم يزر بيت الإله فما له ... من حجه سهم ولا سهمان
وكذا تشد رحالنا للمسجد ... النبوي خير مساجد البلدان
من بعد مكة أو على الإطلاق فيه الخلف منذ زمان
وصلاتنا فيه بألف في سواه ... ما خلا ذا الحجر والأركان
وكذا صلاة في قبا فكعمرة ... في أجرها والفضل للمنان

ثم قال دحلان: الأمر الثاني من الأمرين الذين لابد منهما إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب سبحانه متفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه في شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام. انتهى.

فأقول: اعلم أن جهل هذا الضال مركب لا يدري بما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، ولا يدري بأنه لا يدري، لا يفرق بين الشيح والقيصوم، ولا بين الورد والثوم، إذ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا به فلو أشرك أحد فيما يختص بالرب من ذلك لكان شركاً في توحيد الربوبية لا يغفر، والرب سبحانه يأمر نبيه في كتابه العزيز بأن يحتج على المشركين في شركهم في توحيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي لأنهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الذي اعترفتم به أي إلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ فكل معبود سواه باطل ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ عن عبادة الله إلى ما سواه. وقال تعالى: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾. أي فكيف تصرفون عن الرشد إلى الباطل. وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي أين ذُهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه فشركتموهم في عبادته بطلب المنافع منهم ودفع المضار. ثم أخبر سبحانه أنهم لا يتبعون في ذلك دليلًا، فقال: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا



ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. تهديد شديد ووعيد أكيد. وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتصرفون له العبادة. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. عقاب الله إن صرفتم خالص حقه إلى سواه. وقال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتراهم مشركين في ربوبيته التي أقروا بها أم شركهم في توحيد الإلهية بجعل معبوديهم وسائط بينهم وبين الله؟! قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فاستدل سبحانه على بطلان عبودية ما سواه بعدم خالقيته للأشياء ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل العظيم ويستدل به على بطلان عبادة ما سواه، وقصرها بجميع أنواعها عليه سبحانه وتعالى، وهذا الإقرار من المشركين لم يدخلهم في الإسلام بل قاتلهم ﷺ على توحيد الإلهية، ولكن من جهل هذا الضال وأضرابه لم يعرفوا من دين الإسلام إلا ما أقر به المشركون فإنا لله وإنا إليه راجعون. إذا تقرر هذا فاعلم أن المشركين في وقته ﷺ تفرقت عباداتهم وتنوعت طرائقهم فطائفة تعبد الملائكة. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾. أي يدعونهم ويستعيذون بهم وطائفة تعبد

الملائكة والأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال أهل التفسير: نزلت هذه الآية فيمن يعبد الأنبياء كالمسيح وأمه وعزير والملائكة فذكر سبحانه أن هؤلاء المدعوين من دونه يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب إليه بطاعته ويرجون رحمته ويخافون عذابه وقد عرف من علم البيان أن لفظة الذين لا تستعمل إلا لمن يعقل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الآية. وطائفة تعبد أوثاناً وأصناماً صورت على صور الصالحين. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. قال البخاري ـ رحمه الله ـ: حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام عن ابن جريج وقال عطاء عن ابن عباس إلى أن قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت[1] أي فنسي العلم بسبب نصبها، وأنه لتذكيرهم ما يأمرونهم به وينهونهم عنه، وكذلك قال محمد بن كعب القرظي: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بأخذهم في العبادة فجاء إبليس فقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق في العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: الذين قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتدأ عبادة الأوثان من ذلك القبيل[2]، فإذا عرفت أنهم لم يعتقدوا في من عبدوهم صفات الربوبية وإنما جعلوهم وسائط بينهم وبين الله يحبونهم كحب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٩).

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٢/ ٢٥٤) عن محمد بن قيس بنحوه.



الله يدعونهم ويتذللون لهم ويتضرعون إليهم لطلب الحاجات وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات بزعمهم أن رتبتهم قصرت عن التأهل لسؤال رب الأرض والسموات، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. فهذا حقيقة عبادة المشركين لمعبوديهم، فبعث الله محمداً ﷺ لإبطال ما اعتقدوه فدعاهم ﷺ عشر سنين إلى قصر هذا الأصل العظيم الذي هو أس العبادة على الله تعالى وأنه لا يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة لأنه الإله الحق الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماً ورغبة ورهبة وتوكلًا وإنابة وخضوعاً وخوفاً ورجاء إلى غير ذلك من أعمال القلوب، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ إلى غير ذلك من العبادات القولية والاعتقادية التي لا تخفى على من عقل عن الله أمره فمن صرفها لغير الله فهو مشرك شاء أم أبى،

ولم يشرع الله في هذه المدة الطويلة شيئاً من شرائع الدين كالصلاة والزكاة والصيام والحج حتى أسري به ثم أمر بالهجرة وشرعت الشرائع وأمر بقتال المشركين على الإقرار بما دعاهم إليه لأنه أساس العبادة والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. وهذا حدها الشرعي وقد عرفها بعض العلماء بأنها الطاعة فيدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور كما في حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ فمن صرف لغير الله شيئاً مما أمر الله به واختصه لنفسه فهو مشرك شركاً لا يغفره الله إلا بالتوبة. قال العلامة المحقق حسين بن مهدي في كتابه «فتح الملك الوهاب» لما ذكر إبطال التوسل قال: ومن هنا يستنبط أيضاً عرق البحث ولب المسألة وأن التوحيد الذي أتت به الرسل ونزلت به الكتب قامت عليه الأديان هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء، والأحكام التي أضيفت إلى هذا الأصل إما لأن عبادته كل لها وأنها معنى جامع ومنه صلاة وحج وإنفاق على مطلقته وحامل وتطليق للعدة وتجنب الزنا والخمر، وإما لأنها أي تلك الأحكام توابع ومتممات وسيأتيك إن شاءالله ما يرشدك إلى الحقيقة في هذا، وتأمل هل سجل الله تعالى على الوثنية بالسجود لغيره بنحو ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾. كما سجل عليهم بدعائهم غيره، وهل دار ذلك المعنى في كتابه العزيز كما دار هذا؟ لا أحسب هذا، وكأنه والله أعلم لما كان الدعاء هو العبادة أو مخها والسجود إنما كان هو عبارة عن بعض معاني الدعاء وهو المعنى الأشمل الأكمل في هذا الباب كان قبلة القصد وعمدة المنتحى وقاعدة المرمى ومع التأمل أيضاً كان الدعاء بعض معاني السجود وكأنهما لتلاقي حاصلهما فرسا رهان، ومعنى عبادتك الله وحده هي وقفك النفس على مطلوب حكمه

تركاً وعملًا واعتقاداً واستعمالك نفسك له وحده تركاً وعملًا واعتقاداً على مقتضى حكمه ـ إلى أن قال: وإذا تقرر لك أن الدعاء هو المعهود عند الرسل وأتباعهم من المتشرعين وهو على نحو خاص معناه بوضعه وطبعه وهيئته اللازمة بمنزلة الخلقة لا باعتبار سواها وهذا التفسير لمعنى الدعاء وكما أشرنا إليه باعتبار وضعه بمنزلة الخلقة للإنسان علمت إن شاءالله تعالى بالبرهان الصحيح واليقين الذي لا يخالطه أدنى ريبة ولا ينتابه أو يتسور عليه وهم أو يتطفل عليه شك أن دعاء المخلوق وقصده بذلك من متفاحش الظلم ومتبالغ الشرك ونزاع في خالص حق الله وخضوع وتذلل بخالص عبوديته لسواه، إذ روح كونك عبداً له تعالى هو هذا المقام وهذا التكيف والتصور بهذه الحالة، ومن هنا تلخص لك وجه التسجيل على المشركين إذ يدعون الأوثان وسببه ومنشأ[1] التكثير بأنواع التسفيه والتضليل، ظهر لك وتبين محل دعاء غير الله تعالى من السخف والبطالة وضلال منتحيه وغلوه في الإضرار بنفسه وتحميلها ظلماً كثيراً كبيراً بوضع الشيء في غير محله وصرفه في غير أهله والتباعد مما[2] لا يسوغ ويصلح إلا التقرب منه والتذلل له، وله الخلق والأمر والملك والملكوت والقهر والعزة وصفات الكمال ونعوت الجلال، وأما غيره فلا يملك ضـرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. انتهى. فإذا عرفت مما تقدم أن الدعاء هو المعهود عند الرسل وأتباعهم من المتشرعين وعرفت أيضاً أن رسول الله ﷺ أخذ عشر سنين يدعو المشركين إلى ذلك قبل فرض شرائع الإسلام زادك معرفة ويقيناً أنه المقصود بالأصالة، ولهذا سمى الله الدين الإسلام

---

(١) كذا في المخطوط ولعلها: (منشؤه).

(٢) كذا في المخطوط، ولعلها: (من الرب الذي).

فقال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾. وسمى الله الدعاء ديناً قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. وقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾. وقال: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. فذكر سبحانه في هذه الآيات المحكمات أن الدعاء هو الدين. وذكر أن الدين هو الإسلام تبين لك أن صرف الدعاء لغير الله شرك لا يغفر إلا بالتوبة. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾. وقال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل**»[١]. رواه مسلم. فلم يكتف ﷺ في هذا الحديث بكلمة التوحيد على اشتراط معناها وهو الكفر بما يعبد من دون الله وهذا ظاهر لا يخفى إلا على من جعل الله في آذانه وقراً وعلى قلبه أكنة عن فهم معاني كتاب الله ولله در القائل:

وقل لجموع الجهل بينوا عن الخنى ... أفيقوا عن الإصرار ما بالكم لد
فليس شعاع الشمس يخفى لناظر ... ولا من عليه الحق ينفعه الجحد

ويكشف لك الحال أن علماء خير القرون الذين هم أول الناس علماً وعملاً وفقهاً في دين الله وعقلاً عنه ومعرفة بشرعه وقفوا عند

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

مبلغ علمهم وفهمهم لا يوجد حرف واحد عن أحد منهم يدل على ما ذهب إليه هؤلاء المبتدعون المتخرصون فإنا لله وإنا إليه راجعون. إذا تقرر هذا فقد قال الحافظ العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»: فصل عظيم النفع جليل القدر ينتفع به من عرف نوعي التوحيد القولي، العلمي الخبري والتوحيد القصدي العملي كما دل على الأول سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وعلى الثاني سورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وكذلك دل على الأول قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية. وعلى الثاني: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية. ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر[١] وسنة المغرب[٢] ويقرأ بها في ركعتي الطواف[٣] ويقرأ بالآيتين في سنة الفجر لتضمنهما التوحيد العلمي والعملي، والتوحيد العلمي أساسه إثبات الكمال للرب تعالى ومباينته لخلقه وتنزيهه من العيوب والنقائص والتمثيل. والتوحيد العملي أساسه تجريد القصد بالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحده، فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التوحيدين وأقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما علماً وعملًا ولهذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أقرب الخلق إلى الله وأقربهم إليه وسيلة أولوا العزم وأقربهم الخليلان وخاتمهم سيد ولد آدم وأكرمهم على الله لكمال عبوديته وتوحيده لله فهذان الأصلان هما قطب

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٦).
(٢) أخرجه البيهقي (٢/ ٣٩١).
(٣) أخرجه النسائي (١٦٤).

رحى القرآن وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور، والله سبحانه بيَّنهما غاية البيان بالطرق العقلية والنقلية والفطرية والنظرية والأمثال المضروبة ونوَّع سبحانه الطرق بإثباتهما أكمل التنويع بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة والفطر السليمة لهما بمنزلة رؤية الأعين المبصرة التي لا آفة بها لرؤية الشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء فذاك للبصيرة بمنزلة هذه للبصر، فإن سلط التأويل على التوحيد الخبري العلمي كان تسليطه على التوحيد العملي القصدي أسهل وانمحت رسوم التوحيد وقامت معالم التعطيل والشرك، ولهذا كان الشرك والتعطيل متلازمين لا ينفك أحدهما من صاحبه، فإمام المعطلين المشركين فرعون، فهو إمام كل معطل ومشرك إلى يوم القيامة، كما أن إمامي الموحدين إبراهيم ومحمد عليهما السلام إلى يوم القيامة. انتهى.

وبهذا التقسيم من هذا الإمام المحقق المستدل على التوحيد العلمي والعملي والفرق بينهما بسورة الإخلاص يتبين لك ضلال القبوري دحلان في كونه جعل توحيد الربوبية الذي هو التوحيد القولي العلمي الخبري لا إشراك في سواه. إذا تبين هذا وأن التوحيد القصدي الإرادي العملي الذي هو فعل العبد لا حقيقة له عند هذا الجاهل وأن من اعتقد التفريق بينهما كابن عبدالوهاب وأتباعه فقد أخطأ، فالجواب أن نقول: هذا مما دل على بلادة هذا الرجل وغباوته لما تربى على قول الأسلاف وألفه ولم يكن له في معاني كتاب الله نصيب عمي عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فهل ترى الرب تعالى أمر رسوله أن يدعو العباد إلى عبادة من لا يعرفونه ولا يقرون به؟! هذا لا يصدر من أبلد العباد فضلًا عمن أنزل القرآن بلسان عربي مبين، ونصوص القرآن من أوله إلى آخره تدل على التفريق بين

نوعي التوحيد العملي والعلمي وهي صريحة بأن المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية اعترافاً جازماً غير مترددين ولا متوقفين بل يقرون بجملة من صفات الرب سبحانه ينكرها كثير من المسلمين المنحرفين كإقرارهم بصفة العزة والعلم وبعلوه فوق سمواته وإنما كان شركهم في توحيد الإلهية كما في حديث حصين بن عبدالرحمن لما قال له النبي ﷺ: «**كم إلهاً تعبد؟**» قال: سبعة: ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «**فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في السماء[1] . وكما في شعر أمية بن أبي الصلت وغيره، وأخبر الله عنهم أنهم ما أرادوا من آلهتهم إلا القرب والشفاعة عند الله في أمور دنياهم، وكذا من يعترف منهم بالآخرة فإذا طلبوا من آلهتهم حاجة من حوائجهم من رزق أو نصر على عدو ونحو ذلك لم يقولوا أن آلهتهم تحدث شيئاً من مطلوبهم من دون الله وتستقل به ولم يقل هذا أحد منهم وإنما كانوا يقولون إننا إذا طلبنا حاجتنا من هذا الوجيه عند الله حصل مطلوبنا لوجاهته عنده، ولهذا يخلصون الدعاء لله في الشدائد وينسون الوسائط كما قال تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ . إذا تقرر هذا فإذا خوطب النبي ﷺ أو غيره من الأموات والغائبين بلفظ من ألفاظ الاستغاثة أو طلب منه حاجة بقول: أغثني أو انقذني من كذا، أو خذ بيدي أو اقض حاجتي، أو أنت حسبي، أو أشكو إليك حاجتي، ونحو ذلك يتخذه واسطة بينه وبين الله في ذلك فهذا شرك العرب الذي بعث إليهم رسول الله ﷺ، فلو اعتقد الداعي أن من دعاه وطلبه يقضي حاجته استقلالاً من دون الله كان هذا شركاً في توحيد الربوبية والإلهية، قال شيخ الإسلام تقي الدين ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن رحمة الله سبحانه أن الدعاء المتضمن

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠٥) وقال: «حديث حسن غريب».

شركاً كدعاء غيره أن يفعل أو دعائه أن يدعو ونحو ذلك لا يحصل غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض بشبهة إلا في الأمور الحقيرة، فأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحوط وكشف العذاب النازل فلا ينفع فيه هذا الشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾. وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾. فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به.

ثم قال رحمه الله: وجماع الأمر أن الشرك نوعان: شرك في ربوبيته بأن جعل لغيره معه تدبيراً ما كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾. فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالاً ولا يشركون في شيء من ذلك ولا يعينونه على ملكه فمن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فقد انقطعت علاقته. وشرك في الألوهية بأن يدعى غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فكما أن إثبات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء ولا يوجب أن يكون يدعى المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسباباً لا يقدح في توحيد الألوهية ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص ولا يوجب أن تستعمل

الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذا كان الله يسخط ذلك ويعاقب عليه ويكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعته أذ قد جعل الخير كله في أن لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا به قال: وعامة آيات القرآن تثبت هذا الأصل حتى أنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. وسورة الأنعام سورة عظيمة مشتملة على أصول الإيمان، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾. وسورة الزمر أصل عظيم في هذا. قال: والقرآن عامته إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول في أنه لا يشفع عنده أحد إلا بوجود أمرين: إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع فيه، فمتى فقد الأمران أو أحدهما لم يوجد شفاعة لأحد، قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾. وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾. ثم قال رحمه الله: ولهذا كان الناس في الشفاعة ثلاثة أقسام: فالمشركون أثبتوا الشفاعة التي هي شرك كشفاعة المخلوق

عند المخلوق، كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجة الملوك إليهم فيسألونهم بغير إذنهم ويجيب الملوك سؤالهم لحاجتهم إليهم، فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله مشركون كفار لأن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافع، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ إلى أن قال: القسم الثاني: الخوارج والمعتزلة، فإنهم أنكروا شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر من أمته وهؤلاء مبتدعة ضلال مخالفون السنة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولإجماع خير القرون إلى أن قال: القسم الثالث: أهل السنة والجماعة ومن تبعهم بإحسان أثبتوا ما أثبته الله في كتابه وسنة رسوله ونفوا ما نفاه، فالشفاعة التي أثبتوها هي التي جاءت بها الأحاديث وورد بها القرآن العظيم، وأما الشفاعة التي نفاها القرآن كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة فينفيها أهل العلم والإيمان مثل أنهم يطلبون من الأنبياء والصالحين والغائبين والميتين بزعمهم أنهم إن أرادوها لك قضوها ويقولون إنهم عند الله كخواص الملوك عند الملوك يشفعون بغير إذن الملوك، ولهم على الملوك إدلال يقضون به حوائجهم فيجعلونهم لله بمنزلة شركاء الملوك والله سبحانه قد نزه نفسه عن ذلك. انتهى. وفي هذا القدر إن شاءالله كفاية في إبطال شبهة هذا الملحد في طلب الشفاعة من رسول الله ﷺ ومن غيره بغير إذن الله.

ثم قال القبوري دحلان: وأما التوسل فقد صح عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة منها أنه كان ﷺ من دعائه: «**اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا**»[١] . الحديث. فأقول هؤلاء الملاحدة مولعون بالشرك بالله فإذا وجدوا حديثاً فيه نوع اشتباه لبدعتهم جعلوه عمدة ودليلًا كما أخبر الله عمن في قلبه زيغ أنه يتبع المتشابه من كتابه ويترك المحكم الذي هو أم الكتاب فإن التوسل لفظ مجمل يستعمل في الحق والباطل فإن أريد به ما يحب الله أن يتوسل به إليه فهذا حق والله تعالى يحب أن يتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والصلاة والسلام على نبيه ومحبته وطاعته وموالاته فهذه ونحوها هي الأمور التي يحب الله أن يتوسل بها إليه، ومنها: توسل أهل الغار لما انطبقت عليهم الصخرة فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة[٢] ومنها التوسل بدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم في حياتهم وهذا مما لا نزاع فيه بين العلماء وإن أريد أنه يتوسل إليه بما يحب ذاته وإن لم يكن هناك ما يحب الله أن يتوسل به[٣] فهذا باطل شرعاً وعقلًا، أما عقلًا فلأنه ليس في كون الشخص المعين محبوباً له ما يوجب كون حاجتي تقضى بالتوسل بذاته إذا لم يكن مني ولا منه سبب تقضى به حاجتي فإن كان من التوسل به دعاء لي أو كان مني إيمان به وطاعة له فلا ريب أن هذه وسيلة، وأما نفس ذاته المحبوبة لله فأي وسيلة لي فيها ولهذا لو توسل به من كفر به لم ينفعه، والمؤمن به ينفعه الإيمان به وهو أعظم الوسائل، فتبين أن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٧٠) وأحمد (١٠٧٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٣) و(٢١١١) و(٢١٦٥) و(٣٢٠٦) و(٥٥١٧) و(٤٩٢٦).

(٣) بمعنى أنه يتوسل بذات الشخص المحبوب ولا يتوسل بعمل صالح محبوب فهذا باطل شرعاً وعقلًا.

الوسيلة بين العباد وبين ربهم الإيمان بالرسل وطاعتهم، وقول القائل للرجل الصالح ادع لي توسل بدعائه وهو من جملة الأسباب النافعة كشفاعة النبي ﷺ، وأما شرعاً فيقال: العبادات مبناها على الاتباع لا على الابتداع، ومبنى العبادة على الأمر فليس لأحد أن يشرع عملاً لم يأذن به الله ألا ترى أنه ليس لأحد أن يصلي إلى قبر النبي ﷺ فيقول هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة، ومن لم يعتصم بالكتاب والسنة ضل وأضل. انتهى ملخصاً من كلام شيخ الإسلام. وأما استدلال هذا الضال على جواز التوسل المنهي عنه بالحديث المذكور فذكر شيخ الإسلام أن في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف وعلى تقدير صحته فهو سؤال بحق السائلين له وبحق الماشين في طاعته، وحق السائلين أن يجيبهم، وحق الماشين أن يثيبهم، وهذا حق أوجبه سبحانه على نفسه فإذا كان حق السائلين له والعابدين له هو الإجابة والإثابة فذلك سؤاله سبحانه بأفعاله كالاستعاذة بأفعاله في قوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك**»[1] ، فالاستعاذة بمعافاته الذي هي فعله كالسؤال بإجابته وإثابته الذي هي فعله فليس بحمد الله في هذا الحديث دليل على التوسل بذوات المقبورين من الأنبياء والأولياء والصالحين كما فهمه هذا الملحد. قال الشيخ أبو الحسن القدوري في كتابه المسمى شرح الكرخي المعروف به قال: فصل قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشه، هو الله فلا أكره هذا وفي السؤال بمعقد العز قولان للعلماء رحمهم الله تعالى، ثم استدل

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥١).

القبوري على جواز التوسل بذوات المخلوقين بحديث الأعمى، وليس له فيه بحمد الله دليل على أن لفظ الحديث الذي رواه النسائي في «اليوم والليلة» وابن شاهين في دلائلهما بسندهما عن عثمان بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ أن رجلًا أعمى جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إني قد أصبت في بصري فادع الله لي، فقال ﷺ: **«توضأ فصل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة، إني أتشفع به إليك في رد بصري، اللهم شفِّع نبيي في، ففعل ذلك فرد الله عليه بصره، وقال: إذا كانت لك حاجة فبمثل ذلك فافعل»**[١] ، وساقه الترمذي بسنده إلى عثمان بن حنيف ولفظه: أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني فقال: **«إن شئت دعوت وإن شئت صبرت»**، قال: إذن فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: **«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في»**[٢] . قال الترمذي بعد ذكر تصحيحه وتحسينه وغرابته لا نعرفه إلا من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي. وفي رواية: **«إني توجهت به إلى ربي»** وليست هذه اللفظة في الحديث، وهي قوله: «يا محمد» في سياق هؤلاء الأئمة إلا فيما ذكر الترمذي أنه غريب، وعلى تقدير صحتها فليس فيها بحمد الله ما يدل على دعاء النبي ﷺ والتشفع والاستغاثة به بعد موته، فإن الأعمى لم يطلب من النبي ﷺ أن يرد عليه بصره، وإنما طلب منه أن يدعو الله له، وأيضاً فإن قوله: «**يا محمد**» خطاب لحاضر في قلبه قد

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٣) نحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٦٠٤) و(١٦٦٠٥) والترمذي (٣٥٠٢) وقال: «حديث حسن صحيح غريب» وابن ماجه (١٣٧٥).



توسل بدعائه كما نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي، وكما يستحضر الإنسان من يحبه أو يبغضه ويرد حضوره في تلك الواقعة، فهذا يبين أن معنى التوسل طلب الدعاء من النبي ﷺ، وهذا ظاهر في أول الحديث وآخره يفهم ذلك مَن نوَّر الله بصيرته، وأما من طبع الله على قلبه واتبع المتشابه فلا حيلة فيه، وهذا الضال لا يستدل في رسالته إلا بما يوافق ضلالته، ووالله العظيم ما رأيت مشبهاً على كثرة المشبهين أبلد من هذا الرجل وأجهل منه بدين الله، ولو اتصلت به لدعوته إلى المباهلة عند بيت الله الحرام اقتداء برسول الله ﷺ لما دعا النصارى إلى ذلك عند إنكارهم التوحيد وقولهم في المسيح عليه السلام ما برأه الله منه، إذ كيف يعرض عن الاستدلال بكتاب الله وعن الأحاديث الصحيحة الصريحة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد إلى أقوال واهية يستحي العاقل من أن ينسبها إلى أصحاب النبي ﷺ، كما ذكر في أثر بلال بن الحارث عند ذبحه الشاة بقوله: وامحمداه، وكذا ذكره توسل آدم بالنبي ﷺ قبل وجوده وكذا ذكره أن شعار أصحاب النبي ﷺ في قتال مسيلمة وامحمداه وامحمداه، فكل هذا كذب وضلال وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم أن يسألوا أو يستغيثوا بغير الله سبحانه فقد دهمتهم الدواهم كيوم الحرة وعام الرمادة واختلفوا في الخلافة وفي مسائل من العلم إلى غير ذلك من الأمور العظام التي لا تخفى على من له ذوق في الوقائع التي جرت عليهم فلم يكونوا رضي الله عنهم يسألونه ويستغيثون به وقد كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ في الملاحم تارة يقولون: أمت أمت. وتارة يقولون: حم لا ينصرون. وقد قيل إن حم من أسماء الله، إلى غير ذلك من الأقوال التي يتميز بها القوم عن عدوهم، ثم أورد الملحد على جواز التوسل المنهي عنه توسل عمر

لما قحطوا عام الرمادة وخرج بالصحابة لطلب السقيا من الله، قال عمر: اللهم إنا كنا إذا توسلنا إليك بنبينا تسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا[١] فمعناه نتوسل إليك بدعائه وشفاعته وسؤاله ونحن بعد وفاته نتوسل إليك بدعاء عمه وشفاعته وسؤاله، وفي بعض رواية الأثر: قم يا عباس فادع والصحابة يؤمِّنون على دعائه، وليس معنى دعاء عمر أنا نقسم عليك به، أو نتوسل بذاته بغير دعاء أو ما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد وفاته، وفي مغيبه فحاشا أصحاب رسول الله ﷺ أن يلم بقلوبهم ذلك، فلو كان أعني التوسل بالذات كما ذكر هذا الملحد لفعل الصحابة ذلك بعد موته ولم يعدلوا عنه إلى العباس مع علمهم بأن السؤال به والإقسام به أعظم من العباس، فعلم بالضرورة أن توسل عمر هو مما يطلب من الأحياء دون الأموات، وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم، فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه دعاء ولا غيره، لا كما يقول بعض الضلال: أسألك بجاه فلان عندك، أو يقول: إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه ورسله وأوليائه، وكل هذا ضلال، وقول هذا الرجل: وإنما استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما ولم يستسق بالنبي ﷺ ليبين للناس أن الاستسقاء جائز بغير النبي ﷺ وأن ذلك لا حرج فيه! وهذا من جهل هذا الضال، هل اطلع على نية عمر وقلبه أو وصل إليه من طريق صحيح أو ضعيف؟! ولكن كما قيل:

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

ومن هذا الباب توسل معاوية رضي الله عنه لما قحط أهل الشام بدعاء يزيد بن الأسود الجرشي لما اعتقد فيه الصلاح وقبول الدعوة،

(١) أخرجه البخاري (٩٥٤) و(٣٤٣٤).

قال: اللهم إنا نستشفع إليك بخيارنا بزيد بن الأسود، يا زيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه ودعا ودعوا فسقوا[١]، ثم أورد الملحد حديث الاستفتاح وأن رسول الله ﷺ توسل بجبرائيل وميكائيل وإسرافيل! وهذا من جهله وغباوته وضلاله، فإن رسول الله ﷺ لم يتوسل إلا بربوبيته لهؤلاء الملائكة إذ هم أفضل الملائكة وأمناء الله، فجبريل رسول كتب الله التي هي حياة القلوب، وميكائيل رسول غيث الله لعباده، وإسرافيل رسول النفخ في الصور الذي هو حياة الأبدان عند البعث والنشور، فلو كان التوسل بذواتهم جائزاً للزم من ذلك توسل النبي ﷺ بجميع الخلق والفلق في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وبالسموات والأرض وبالرياح وبالشياطين كما في قوله ﷺ: «**اللهم رب السموات السبع وما أضلت ورب الأرضين السبع وما أقلت ورب الرياح وما ذرت ورب الشياطين وما أغوت كن لي جائراً من شر خلقك**»[٢] الحديث. ولكن هذا يهذي ولا يدري ما وجد مسطوراً كتبه نسأل الله العافية.

واحتج القبوري على جواز التوسل المنهي عنه بحديث: «**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا فإن الله حاضر سيحبسه**»[٣] ففي إسناده معروف بن حسان وهو منكر الحديث، قاله ابن عدي. وعلى تقدير صحته فليس فيه حجة لهذا المبطل على جواز دعاء الأموات والغائبين لأنه قال فيه إن لله حاضراً سيحبسه، المعنى أن

---

(١) ذكره الذهبي في «السير» (٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٤٥) وقال: «هذا حديث ليس إسناده بالقوي..».

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٠٠) وفي سنده معروف بن حسان السمرقندي، غير معروف.

لله عباداً لا نعلمهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد وكلهم سبحانه بهذا الأمر وهو يدل على أن هؤلاء الذين أمر بمناداتهم حاضرون أحياء جعل الله لهم قدرة على ذلك بقوله فإن لله حاضراً سيحبسه، وهذا كما ينادي الإنسان أصحابه في السفر الذين معه أن يردوا عليه دابته إذا انفلتت، وكل عاقل يتيقن أن النبي ﷺ لا يأمر بمناداة من لا يسمع ولا يعين من ناداه ومن استدل بذلك على جواز الاستغاثة بالأموات والغائبين فهو ضال مضل.

وأورد أيضاً على جواز التوسل المنهي عنه أن رجلًا جاء إلى قبر النبي ﷺ فشكى إليه الجدب عام الرمادة فرآه وهو يأمره أن يأتي عمر فيأمره أن يخرج فيستسقي بالناس. هذا لفظ الشيخ في «اقتضاء الصراط المستقيم»: ومثل هذا يقع كثيراً لمن هو دون النبي ﷺ، وأعرف من هذا وقائع وهذا قد يكون على تقدير صحته كرامة لصاحب القبر، أما أنه يدل على حسن حال هذا السائل ففرق بين هذا وهذا، انتهى. وهذه الحكاية التي احتج بها هذا الرجل هي حجة عليه في قوله أن من جاز أن يطلب منه في الحياة جاز أن يطلب منه بعد الممات، وهو ﷺ لما كان حيًّا معهم على وجه الأرض إذا طلبوا منه أن يستسقي لهم يستسقي بنفسه لا يقول اذهبوا إلى فلان يستسقي لكم، وفي هذه الحكاية لم يقل أنا أستسقي لكم بل أمر عمر أن يستسقي بالناس، فدل على أن هذا متعذر منه بعد موته والصحابة خرجوا إلى الصحراء مع عمر واستسقوا ولم يأتوا إلى قبره يطلبون منه كما كانوا يفعلون في حياته، بل ولا جاءوا يستسقون عند قبره، وأيضاً لا يعرف اسم صاحب هذه الحكاية فضلًا عن معرفة حاله، والمدينة في ذلك الزمان يردها أهل الآفاق من العرب والعجم والحاضرة والبادية فهي حكاية مخالفة لما عليه عمل الصحابة رضوان الله

عليهم أجمعين. ثم أتبع هذه الشبهة بكثرة التقارير وإيراد الكذب والتزوير، واعتاض بذلك عما ورد في محكم التنزيل الذي جعله الله هدى للناس وشفاء وموعظة للمتقين، وعن صحيح السنة الثابتة عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى في إخلاص العبادة لله رب العالمين، وإبطال زعم من جعل بينه وبين الله وسائط من المشركين، فقال القبوري: والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة ـ وعني بهذا الوصف أهل معتقده الباطل ـ صحة التوسل والاستغاثة والاستجارة والتشفع والتوجه بالنبي ﷺ في حياته وبعد وفاته وقبل وجوده، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين وبالملائكة المقربين وكذا بالأولياء والصالحين لأنا لا نعتقد تأثيراً ولا إيجاداً لغير الله تعالى. إلى أن قال: فالاستغاثة معناها طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره، فالمستغاث به واسطة بين المستغيثين وبين الله. إلى أن قال: فإذا قلت: أغثني يا الله تريد الإسناد الحقيقي، وإذا قلت: أغثني يا رسول الله تريد الإسناد المجازي. إلى أن قال: فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه إشراك!

فأقول: هذه الجملة التي ذكرها هي غاية الضرر المتلف وهي مصب الفائدة من ضلال هذا الضال فليهن عباد المسيح وأمه وعزير والملائكة وعباد الأصنام ما حكم لهم به هذا الملحد الضال من كونهم سلكوا الصراط المستقيم على زعمه لأنهم لا يعتقدون في عبادة هؤلاء المذكورين تأثيراً ولا إيجاداً فكأنه لم يسمع ما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾. وكما قال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا

كانوا يفترون﴾. وكما قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠) قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ الآية.

وقال تعالى فيمن عبد المسيح وأمه وعزيراً: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ أي يرجون رحمته كما ترجون رحمته، ويخافون عذابه كما تخافون عذابه، فأخبر سبحانه في هذه الآيات المحكمات أنهم يتوسلون بهم ويتقربون إليه بهم مع أنهم يعلمون أن الله هو المؤثر وكذلك يخلصون الدعاء لله في الشدائد فأمر الله نبيه بقتالهم واستباحة دمائهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾. وعلى معتقد هذا الملحد أن رسول الله ﷺ أخطأ وظلم في قتال المشركين لأنهم لا يعتقدون تأثيراً ولا إيجاداً لغير الله مع أن هذا الملحد قد نقض أصله في نفس تعريفه بقوله: فالمستغيث يطلب ممن استغاث به أن يحصل له الغوث من غيره فهل التحصيل إلا فعل قائم بالواسطة الذي طلب منه التحصيل، وقد سلك في معتقده هذا مع تناقضه مذهب القدرية المجبرة القائلين بأن العبد مجبور لا فعل له حقيقة بل إسناد الفعل إليه مجاز فكأنه لم يسمع قول الله سبحانه: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ فأثبت سبحانه فعل الظلم لهم فعاقبهم عليه وقوله: ﴿ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ وقال تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾. وقال تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾. وقال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ الآية. أيظن من له أدنى رائحة من عقل أن الله قصد نسبة مكر المشركين إليهم مجازاً وإليه حقيقة! لأنه لا فعل لهم على مذهبه حقيقة تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

والله سبحانه وبحمده سجل على العباد واحتج على تعذيبه لهم بأفعالهم وهذا لا ينافي أن الله خلق الخلق وأفعالهم لكنه سبحانه جعل لهم دخلًا واختياراً في الأفعال فيثابون عليها ويعاقبون بذلك، ولو لم يكن لهم دخل واختيار لما نسب الظلم إليهم، ونحن نفرق بين حركة الاختيار والاضطرار إلى فعل عمل من الأعمال فبسبب ذلك الدخل والاختيار صار إلى علم الله وكتابته في الأزل ولا ندرك[١] ، لأن العقل عاجز عن فعل رب العقل وعلمه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنؤمن بما جاءنا عن الله ونفوض علم[٢] إلى الله سبحانه، وكل من بحث في هذا واتبع العقل ما أداه إلا إلى البطالة والإباحة والضلال والوبال، كحال هذا الملحد الذي دعا الناس إلى عبادة غير الله بمجرد عقله وهواه وإعراضه عن معاني كتاب الله، إذ يلزم على قول هذا المضل إن إسناد الأفعال إلى الخلق إسناداً مجازيًا لا يؤاخذ به من فعله وأن الله سبحانه ظالم لعباده بتعذيبهم على ما ليس من أفعالهم، تعالى الله وتقدس عما يقول هذا الضال علوًا كبيراً، لأن الله أسند الظلم والكفر وما قدمت اليد إلى غير ذلك مما جاء في آي القرآن التي فيهن إسناد الأفعال إلى العباد بل يلزم على قوله أمر لا يتجاسر المسلم على التلفظ به من إباحة ما حرم الله تعالى من الفواحش، إذ إسناد الأفعال إلى العباد إسناد مجازي وإسنادها إلى الله على مذهبه الباطل إسناداً حقيقيًا، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ثم قال القبوري: والإسناد المجازي شائع في الكتاب والسنة وكلام العرب، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن

(١) كلمتان غير واضحتين لعلهما (ذلك بمجرد العقل).

(٢) كلمتان غير واضحتين لعلهما (حقيقة ذلك).

﴿يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الآية.

وقول الشاعر:

منع البقاء تقلب الشمس

وقول العرب: أنبت الربيع البقل. انتهى. ومن استدل بنحو هذه الأشياء على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ وبغيره من الأنبياء والغائبين بالتذلل لهم والخضوع وطلب الحاجات وسؤالهم كشف الكروب وغفران الذنوب فقد أتى بما ينكره العامي سليم الفطرة، ونحن لا ننكر إضافة الأشياء إلى أسبابها وأن الله سبحانه هو خالق الأسباب والمسببات ولا يلزم من ذلك أن نعتمد على الأسباب فضلًا عن أن نسألها ونرغب إليها بل يتعين على العباد أن يعتمدوا على خالق الأسباب ويرغبوا إليه ويستعينوا ويعبدوه وحده إياك نعبد وإياك نستعين. وقد تقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن إثبات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية، ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء ولا يوجب أن يدعى المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استعانة، وطرد هذا الأصل الذي أصله هذا الضال أنه يجوز الإسناد المجازي في جميع الأسباب إذ هو إسناد مجازي، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فيلزم هذا الملحد أن يجوز للناس أن يطلبوا من الريح أن تثير لهم سحاباً ماطراً، وقال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والمراد بالظلمات ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور العلم والإيمان، فيجوز على أصله الباطل أن يقال: يا رسول الله أخرجنا من الظلمات إلى النور، ـ وهذا حقيقة هداية الصراط المستقيم ـ فيقال: يا رسول الله، اهدنا الصراط المستقيم، وهذا لازم لهذا المبطل لا محيد له عنه مع أني لا أستبعد التزامه ذلك، وقد قال

تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ والله سبحانه جعل دخول الجنة والنجاة من النار معلقاً على الأعمال الصالحة لا على الالتجاء إلى المخلوقين والاستغاثة بهم والتوسل بذواتهم، وجعلهم رب العزة في خالص العبادة التي فرضها على عباده نسياً منسيا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى آخر السورة، وكما جعل سبحانه اتباع رسوله في أقواله وأفعاله سبباً لمحبته ومغفرة الذنوب والفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذا المفتري على الله الكذب يزعم أن التقرب إلى الله تعالى بذوات المخلوقين أولى من التقرب إليه بالأعمال الصالحة وباتباع رسوله ﷺ! فيا سبحان الله، كيف يروج تمويهه هذا على من يسمع هذه الآيات المحكمات ونحوها مما لا يحصى من آي القرآن؟

ثم قال دحلان: والحاصل أن هؤلاء المانعين للزيارة والتوسل قد جاوزوا الحد وكفروا أكثر الأمة واستحلوا دماءهم وأموالهم، وقالوا: إن الناس يشركون في توسلهم بالنبي وبالأنبياء والأولياء والصالحين ونداؤهم بقولهم: يا رسول الله أسألك الشفاعة، وأورد آيات النهي عن دعاء غير الله الدالة على السؤال والطلب الواردة في السور المكية من النهي عن دعاء غير الله، قال: وحملوا هذه الآيات التي نزلت في

المشركين على خواص المؤمنين وعوامهم كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية. وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير حملوا الدعاء فيها على النداء ثم حملوها على المؤمنين الموحدين، وقالوا: إن من استغاث بالنبي أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين، أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين. انتهى كلامه.

فيا سبحان الله! كيف بلغ اتباع الهوى بصاحبه إلى هذا الجهل العظيم والتناقض البين وتحريف معاني آيات الله المحكمات الدالة على السؤال والطلب، ويحتج بها على أنها إنما وردت في المشركين وأن حكمها لا يتعداهم، وأن النداء لا يسمى دعاء، وهذه حال من أعمى الله بصيرته يستدل على بدعته من كلام الله بما هو حجة عليه، فالجواب: أما أحكام القرآن فهي متناولة لجميع أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ فمن بلغه القرآن فهو مخاطب به، ويلزم على قول هذا المبطل أن حكم القرآن لا يتعدى من نزل فيه فيقال: قد خاطب الله الصحابة بشرائع الدين كالصلاة والزكاة والصيام

والحج وبآيات المواريث وبآيات الحدود فيلزم على قول هذا المبطل أن حكمها لا يتعدى الصحابة، وهذا كفر وضلال فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب مع أن هذا المبطل قد نقض أصله في الاستدلال بآية النساء على ما لا تدل عليه ولا نزلت فيه فقال: والآية وإن وردت في قوم معينين تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف! وهذه حال من لم يكن على صراط مستقيم، وأما تفريقه بين الدعاء والنداء فهو تكذيب لله تعالى لأن الله سبحانه سمى النداء دعاء فهو استعمال للفظ في حقيقته الواحدة وليس من استعماله في اللفظ المشترك فتنبه، قال تعالى عن نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فسماه في موضع دعاء وفي موضع نداء، وقال عن زكريا: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾. وقال عن أيوب: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ الآية. وقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. وقال ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مسلم إلا استجيب له**»[١]. وقال بعض الصحابة للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٢]. وقد سمى الله طلب المخلوقين من المخلوق واستعانته به

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٨٣) والترمذي (٣٤٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٣١٤) من طريق الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فذكر نحوه. وأخرجه أيضاً ابن جرير الطبري (٢/ ١٦٥).

واستغاثته دعاء ونداء، قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾. وقال الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، أي قولوا له: يا رسول الله أغثنا من ضرره، فقال ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**»[1]. وهذا حماية منه ﷺ لجانب التوحيد وإلا فهو يقدر على ما طلبوا، وقال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ فهذا نص في دعاء المسألة، وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ وهو كذلك وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقوله: فادعوهم أي اطلبوا منهم، وقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ فأراد الله بالدعاء هنا الطلب الذي هو ضد الصمت، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي استعينوا بشركائكم، وقال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي استعينوا بهم ليخلصوكم من عذابي فدعوهم فلم يستجيبوا لهم. وقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ ليخلصوكم من ما أنتم فيه ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ وقال في موضع ﴿ادعوا﴾ وفي موضع ﴿نادوا﴾ وقوله ﴿ادعوهم﴾ صريح في الطلب منهم، وقال: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استعينوا بهم. وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استعينوا بهم، فسمى سبحانه استعانتهم بهم دعاء، بل قد سمى الله سبحانه نعيق الراعي بالبهائم دعاء ونداء فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ فجميع ما قدمنا صريح في أن سؤال العبد ربه يسمى دعاء ونداء، وأن استعانة المخلوق بالمخلوق وطلبه منه يسمى دعاء ونداء، وقال النحويون: النداء هو الدعاء

---

(١) «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩).

بأحرف مخصوصة، وأن المنادى منصوباً لفظاً أو محلًا بفعل محذوف، كقولك: يا زيد أي ادعو زيداً، ومن أقسام المنادى: المستغاث به، وهو كل من نودي ليخلص من الشدة أو يعين على رفع مشقة، كقول عمر: يا الله للمسلمين، أي أدعوك للمسلمين، فاتضح بطلان قول هذا المبطل أن طلب المخلوق لا يسمى دعاء بل نداء فهو يقول: إن الطلب من الملائكة والمسيح وأمه وعزير والجن وغيرهم نداء لا دعاء، فما أدري ما يقول فيمن طلب العزى ومناة واللات فإن قال: إن الطلب منها لا يسمى دعاء بل هو نداء والنداء عنده لا يضر افتضح عند العامة والخاصة، وإن قال: إنه يسمى دعاء، قيل له: نقضت أصلك حيث جعلت الطلب من هذه الأوثان دعاء ومن غيرها نداء فهذا شيء واحد جعلته بالنسبة إلى الأموات والغائبين والملائكة والمسيح وأمه وعزير والجن نداء، وبالنسبة إلى العزى وغيرها من الأوثان دعاء! مع أنه يلزمه أن لا يسميه دعاء إذ لم يسم مدعوه ربًّا وإلهاً لقوله: إن الدعاء الذي هو عبادة هو اتخاذ غير الله ربًّا وإلهاً ومن المعلوم أن أجهل المسلمين لا يسمي غير الله ربًّا وإلهاً ولا يقصد ذلك.

فيقال لهذا الضال: التسمية لا حكم لها ولا تتغير حقيقة الشيء بتغير الاسم كما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**يأتي ناس من أمتي يسمون الخمر بغير اسمها**»[1] وكذا من سمى الزنا نكاحاً، فالتسيمة لا تزيل الاسم ولا الحكم، ومن عامل معاملة ربوية فهو مرابي وإن لم يسمه ربًّا، فكذا من ارتكب شيئاً من الأمور الشركية فهو مشرك وإن سمى ذلك توسلًا وتشفعاً ونحوه، والشيطان لما علم أن النفوس تفر من تسمية ما

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧٩) و(٢١٨٢٧) والنسائي (٥٥٦٤) وأخرجه أبو داود (٣٢٠٣) وأخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥).

يفعله المشركون تألهاً أخرجه في قالب آخر تقبله النفوس، ومما يفضح هذا في قوله: أن طلب المخلوق من المخلوق لا يسمى دعاء بل هو نداء وإنما الدعاء الذي هو عبادة فهو اتخاذ غير الله ربًّا وإلهاً. فعلى قوله أن من نادى إبليس وطلب منه قضاء حاجته وكشف كرباته مع كونه لا يسميه ربًّا وإلهاً بل يقول أنا أبغضه ولكن أطلب منه حوائجي وأستنصر به على عدوي لأنه يقوى على ما لا يقوى عليه البشر فلا يضرني ذلك على مذهب الشيخ دحلان لأني لا أسمي الشيطان ربًّا وإلهاً ولا أعتقد ذلك فيه! فعلى مذهبه الباطل أن هذا جائز تحقيق ذلك أن كل أحد يعترف بأن عبادة غير الله شرك وقد قدمنا تعريف العبادة فمن جعل نوعاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك وإن كان لا يظنه شركاً ولا تألهاً أو سماه بأي اسم شاء، فالمشرك مشرك شاء أم أبى، كما أن المرابي مراب شاء أم أبى، يوضح ذلك أن من أطاع مخلوقاً في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذه ربًّا وإلهاً من دون الله، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما أن عدي بن حاتم قدم على النبي ﷺ وكان قد تنصَّر في الجاهلية فسمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ الآية، فقال: يا رسول الله، إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**»[١]. قال ابن عباس وحذيفة بن اليمان في تفسير هذه الآية: إنهم اتبعوهم فيما

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٦/ ٣٠٤) من حديث عدي بن حاتم.

حللوا[١] . وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[٢] . وقال أبو البحتري: إما أنهم لم يصلوا لهم ولو أمروهم أن يعبدوهم ما أطاعوهم ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية[٣] . انتهى.

فهؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية لم يسموا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ولا آلهة ولا كانوا يظنون أن فعلهم هذا معهم عبادة لهم ولهذا قال عدي: إنهم لم يعبدوهم، وحكم الشيء تابع لحقيقته لا لاسمه، ولا لاعتقاد فاعله فهؤلاء الذين كانوا يعتقدون أن طاعتهم لهم في ذلك ليست بعبادة لهم فلم يكن ذلك عذراً لهم ولا مزيلًا لاسم فعلهم ولا لحقيقته وحكمه، فكذلك ما يفعله عباد القبور في سؤالهم المقبورين قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالنذور والذبائح عبادة منهم للمقبورين وإن كانوا لا يسمونه ولا يظنونه عبادة، ويوضح ذلك أيضاً ما روى الترمذي وصححه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: «**إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا**

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٨٤) عن حذيفة وابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٦/ ٣٥٥).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٦/ ٣٥٤) عن أبي البَختري عن حذيفة موقوفاً.

إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، لتتبعن سنن من كان قبلكم»(١) فهؤلاء لقرب عهدهم بالكفر كانوا يظنون أن الذي طلبوا ليس من التأله لغير الله لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويعرفون معناها وخفي عليهم أن ذلك الذي طلبوه مما تنفيه لا إله إلا الله فلم يكن ظنهم مغيراً لحقيقة هذا وحكمه، ومن له معرفة بما بعث الله به رسوله علم أن ما يفعل عند القبور من دعاء أصحابها والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم أعظم وأكبر من الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأقبح من قول الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، أفاد ذلك شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين.

قال ابن القيم رحمه الله: فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عليها من اتخاذ آلهة مع الله مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها، فما الظن بالعكوف حول القبر ودعائه والدعاء عنده؟ فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون، وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿مسلمون﴾ وروى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت اليهود والنصارى من أهل نجران عند النبي ﷺ ودعاهم للإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى ابن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوَتريد ذلك يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله أن نعبد**

(١) أخرجه الترمذي (٢١٠٦) وعنده: «لتركبن سنة من كان قبلكم» وأحمد (٢٠٨٩٣) و(٢٠٨٩٥) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

غير الله أو نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني» فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مسلمون﴾[(١)] فبين سبحانه وتعالى أن من عبد الملائكة والنبيين فقد اتخذهم أرباباً من دون الله وأنه يكفر بذلك وإن لم يعتقد ربوبيته أو لم يسمه بها، وأما من أمر بعبادتهم فقد أمر باتخاذهم أرباباً من دون الله فكيف بمن هو دونهم. انتهى. فيا سبحان الله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، وظاهر كلام هؤلاء الملاحدة أنه يطلب من الأموات والغائبين كل شيء.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: من جوز أن يطلب من المخلوق كل ما يطلب من الخالق من كشف الشدائد فكفره شر من كفر عبَّاد الأصنام فإنهم لا يطلبون منها كل ما يطلب من الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. فبين سبحانه أنه إذا جاء عذاب الله أو أتت الساعة لا يطلبون إلا الله في كشف الشدائد وجلب الفوائد، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قال: وقد وقع في كثير من ذلك من وقع من العامة وغيرهم. انتهى. فافتراء هذا الملحد على الله عبادة لم يشرعها سبحانه أعظم من افتراء الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. نزلت هذه الآية في الذين يطوفون بالبيت عراة[(٢)] اتبعوا في ذلك آباءهم ويزعمون أنهم مستندون إلى أمر الله، فقال تعالى مكذباً لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٤٠٤) عن ابن عباس به.

(٢) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٢٣٣) عن مجاهد به.

تَعۡلَمُونَ﴾ وهؤلاء الضلال يقولون إنا وجدنا الناس غيركم على دعاء الأموات والغائبين وهم الأكثرون، وهؤلاء أجهل الناس بما بعث الله به الرسل من أولهم إلى آخرهم إذ ينهون عنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فالآيات في هذا المعنى معلومة كثيرة، والدعاء من أجلّ العبادات كما في الحديث المرفوع: «**الدعاء مخ العبادة**»[1] قالوا: معناه خالص العبادة لأن الداعي إنما يدعو عند انقطاع أمله عما سوى الله وهذا حقيقة التوحيد والإخلاص، وفي الحديث الآخر «**أن الدعاء هو العبادة**»[2]، وفي الحديث الآخر: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»[3]، وفي حديث آخر: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[4]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ حديث النزول وفيه فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[5] فذكر أولاً لفظ الدعاء ثم السؤال ثم الاستغفار والمستغفر سائل كما أن السائل داع فعطف السؤال والاستغفار على الدعاء من عطف الخاص على العامّ الذي يتناولهما وغيرهما، قاله شيخ الإسلام تقي الدين رحمه الله تعالى. والله سبحانه أمر بدعائه في كتابه في مواضع، والنبي ﷺ كان يكثر من دعاء الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٣) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة».

(٢) تقدم ص ٤٣.

(٣) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٤٦٧) وسنده ضعيف جداً أو موضوع في سنده يوسف بن السفر في عداد من يضع الحديث.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٧٧) و(٥٨٤٦) و(٦٩٤٠) ومسلم (١٢٦١) و(١٢٦٤).

واستغفاره، وأمر بذلك في أحاديث كثيرة، وقال الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال ابن عباس: إياك نعبد أي إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك. وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها[١]، وقال قتادة: يأمركم ربكم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم كلها[٢]، قال ابن القيم رحمه الله: وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب إلى هاتين الكلمتين وعليهما مدار العبودية والتوحيد. انتهى. والله سبحانه فرض على العباد أن يعبدوه وحده، وهذا المفتري يقول استعينوا بالأموات والغائبين وارغبوا إليهم في مهماتكم. وقد قال: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أي ارغبوا إليه لا إلى غيره، وقال النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٣] وقد تقدم تقرير العبادة وتعريفها وأنها كل ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب واستحباب فهو عبادة، فإذا دعوت الله فقد عبدته، فإذا دعوت غيره من ميت أو غائب أو حجر أو شجر فقد عبدت ذلك الغير، فإذا سجدت لله فقد عبدته، فإذا سجدت لغيره صرت عابداً لذلك الغير، فإذا ذبحت لله فقد عبدته، فإذا ذبحت لغيره صرت عابداً لذلك الغير، وهكذا سائر العبادات، هذا مع أن نصوص القرآن في النهي عن دعاء غير الله وذم من فعل ذلك والإنكار عليه أكثر من النهي عن خاصية السجود لغيره، كما قد قررنا ذلك فيما سبق أن النهي عن دعاء غير الله هو أصل البعثة وأن الشرائع لم تفرض إلا في

---

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ٢٨) عن ابن عباس به.

(٢) ذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ٢٨) عن قتادة به.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٤٠) وأحمد (٢٦٢٧) و(٢٦٦٦) مطولاً، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

المدينة وهذا معلوم عند الخاصة والعامة. إذا تبين بطلان قول هذا فالدعاء يكون أيضاً أعم من النداء لأنه قد يكون بغير حرف نداء كقول نوح ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وقول بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وقول السائل: أشكو إلى الله حاجتي وذنوبي وأسأله كذا وأعوذ به من كذا، وكل هذا يسمى دعاء. وسمى النبي ﷺ قول ذي النون لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين دعاء كما تقدم في الحديث. وفي الترمذي: **كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**[١] . الحديث. وفي الصحيحين عن ابن عباس: **كان النبي ﷺ** يدعو عند الكرب: **لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم**[٢] . فسمى هذا دعاء مع أنه ليس فيه تصريح بالسؤال، قال شيخ الإسلام تقي الدين رحمه الله في الكلام على دعوة ذي النون، قال: فالسائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة بصيغة الخبر، إما بوصف حاله أو حال السؤال أو بهما، وهو من حسن الأدب في السؤال كقول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. فالسؤال بالحال أبلغ من جهة العلم والبيان، وبالطلب أظهر من جهة القصد والإرادة، فبهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني لأن السائل يتصور مراده فيسأله بالمطابقة فإن تضمن وصف حال السائل والمسؤول فهو أكمل كقوله: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت**

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٦٧) والترمذي (٣٥٠٩) واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦٩) و(٦٨٧٦) ومسلم (٤٩٠٩).

الغفور الرحيم»(١) فيه وصف لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة ووصف الرب بما يقتضي الإجابة وهو وصفه بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه أكمل الأنواع. انتهى.

قال ابن كثير: وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية. وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كقول الشاعر:

أءذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك أن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

ومن أصغى إلى كلام الله ورسوله بقلبه وتدبره بكليته وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات كما ابتلى بها أكثر الناس، ومما يقرر أن مدلول الدعاء هو السؤال والطلب رغبة أو رهبة أو مجموعهما ما ذكره البخاري رحمه الله وغيره من المحدثين والمفسرين فإنه قال في صحيحه كتاب الدعوات. باب قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ولكل نبي دعوة مستجابة، حدثنا إسماعيل، قال حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**(٢) زاد مسلم: **«وهي نائلة إن شاءالله من مات من أمتي لا يشرك**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٠) و(٥٨٥١) و(٦٨٣٩)، ومسلم (٤٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٢٩) و(٥٨٣٠) و(٦٩٢٠) ومسلم (٢٩٣).

بالله شيئاً»[١] ثم ذكر حديث البراء بسنده إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي، إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»[٢] الحديث. ففي هذا الحديث الدعاء باللهم ومعناه يا الله ثم ذكر حديث النزول قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له**»[٣]. الحديث. إلى أن قال باب الدعاء في الصلاة وذكر بسنده عن أبي بكر الصديق أنه قال للنبي ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[٤] ثم ذكر بسنده عن عائشة: «**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها**»[٥] ثم قال باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، وقال أبو موسى قال النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه**»[٦] ثم ذكر حديث أنس قال: قالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنيس قال: «**اللهم اغفر له ذنبه وأكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته**»[٧].

ثم ذكر حديث أنس «**إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقول اللهم اغفر**

---

(١) الزيادة لمسلم (٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٦) و(٥٨٣٨) و(٥٨٤٠) و(٦٩٣٤) ومسلم (٤٨٨٥).

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٥٢) وعنده قالت عائشة: «أنزلت في الدعاء».

(٦) أخرجه البخاري في (كتاب الدعوات).

(٧) أخرجه البخاري (٥٨٥٩) و(٥٨٦٨) و(٥٩٠١) و(٥٩٠٢)، ومسلم (٤٥٢٩).

لي، **إن شئت فأعطني فإنه لا مستكره له**»[1]، وذكر حديث أبي هريرة: «**اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له**»[2]، ثم ذكر حديث الاستسقاء في خطبة الجمعة إلى أن قال: فقام ذاك الرجل أو غيره فقال ادع الله أن يصرفه عنا فقد غرقنا، فقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**»[3] الحديث. وذكر رحمه الله أحاديث كثيرة في هذا المعنى كما في صحيح مسلم والسنن والمسانيد مما لا تحصى كثرة وكل يترجم له بالدعوات، فتبين بحمد الله بما ذكرنا من الآيات والأحاديث حقيقة الدعاء الذي تعبد الله به عباده وأمرهم به ورغبهم فيه وتقدم ما يدل على أنه من أفضل العبادات وأجمعها لأنواع العبادة كالتذلل والخضوع والإقبال بالوجه والقلب واللسان والرغبة والرهبة أو مجموعهما، ولا يجحد هذا ويباهت في حقيقته إلا ملبس معاند، وفيما ذكرنا من الآيات والأحاديث في هذا المقام كفاية إذ لا يشك فيه وفي حقيقة معناه من له أدنى مسكة من عقل.

وفي الأحاديث التي ذكر البخاري وغيره ما يدل على صحة ما ذكره شيخ الإسلام وتلميذه العلامة ابن القيم في تعريف الدعاء وأنه نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهذا نص العلامة في «بدائع الفوائد» وغيرها قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتضمن نوعي الدعاء ولكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمرنا بإخفائه وإسراره، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٤) غير «اللهم ارحمني».

(٣) أخرجه البخاري (٨٨١) و(٩٥٧) و(٩٥٨) و(٩٥٩) و(٩٦٥) و(٩٧٥) و(٥٦٢٨) و(٥٨٦٦) ومسلم (١٤٩٣).

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألني وقيل أثيبه إذا عبدني وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه وفي حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمل هذا الموضوع فإنه عظيم النفع جدًّا.

فصل في بيان شيء من أنواع الشرك

قال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه ـ أي الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً فضلًا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده وفي الفتاوى البزازية من كتب الحنفية: من قال إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر، وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتاب الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامات: هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم يستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، وقالوا منهم أبدال ونقباء وأوتاد ونجباء، وسبعون، وسبعة، وأربعون، وأربعة، والقطب هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيها الأجور، قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ومخالف لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل:



﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾. ثم قال: فأما قولهم أن للأولياء تصرفات في حياتهم أو بعد مماتهم فيرده قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ونحوه من الآيات الدالات على أنه المتفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وتصرفه وقهره تصرفاً وملكاً وإحياء وإماتة وخلقاً، وتمدح الرب سبحانه بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ وذكر آيات في هذا المعنى. ثم قال: فقوله في الآيات كلها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نفع نفسه كيف ينفع غيره؟ إلى أن قال: وهذا القول وخيم وشرك عظيم. إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ الآية. ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾. ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**»[1] الحديث، وجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت وأن أرواحهم ممسكة فإن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان فدل ذلك أن ليس للميت تصرف في ذاته فضلًا عن غيره فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره، فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده وهؤلاء الملحدون يقولون إن الأرواح

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٨٤) والترمذي (١٢٩٧)، والنسائي (٣٥٩١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات فهو من المغالطات، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه لا قصد لهم فيه ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني، قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر القادر على إيصال الخير فهو المنفرد، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي، قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقوله: يا زيد يا لمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة أو بالتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض[١] وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الإلهية لا يطلب فيها غير الله، وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة وقضاء حاجة تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير فهو على شفا حفرة من السعير، وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات

(١) أي اعتقد أن من استعان به يؤثر بنفسه في ذلك، وليس مراده من استعان بفعل الأسباب المقدور عليها.



فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن ﴿ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ . ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع الله، إذ لا قادر على النفع غيره، ولا خير إلا خيره، وهذه الأفعال التي ذكرنا عنهم من موضوعات فكر الضلال، كما ذكره القاضي المحدث في «سراج المريدين» وابن الجوزي وابن تيمية رحمهم الله. انتهى باختصار. فرحم الله علماء السنة فلقد كفونا مؤونة ما أورده المشركون من شبهات المبطلين وإلحاد الملحدين فلله الحمد والمنة على عظيم النعمة، فتبين لمن له عقل بطلان ما يبهرج به هذا الملحد من كرامات الأولياء مستدلاً بذلك على جواز جعلهم لله أنداداً، ومما يبين ذلك أنه وقع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في غزوة خيبر من الكرامات ما لم يقع مثله لغيره، ولما بلغه عن أناس لما كان منزله بالكوفة أنهم اعتقدوا فيه الإلهية خدد لهم الأخاديد وجعل فيها الحطب وأوقدها بالنار وقذفهم فيها إعظاماً لهذا الأمر، وهو بالنسبة إلى ما وقع من عباد القبور في هذه الأزمنة وقبلها قليل من كثير، والكرامة أمر يجعله الله لا صنع للبشر فيه، والذي أوجد الكرامة لمن شاء من عباده هو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، فإن الكرامة إنما تقع للموحدين المخلصين بسبب توحيدهم وإخلاصهم، كما قال تعالى في حق المسيح ابن مريم وأمه والعزير والملائكة بعد التهديد والوعيد لمن دعاهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ والوسيلة هي القربة بالأعمال الصالحة ولهم مع هذه المعجزات العظيمة، أفاد هذه الجمل شيخنا المحقق عبدالرحمن بن حسن ـ قدس

الله سره ونور ضريحه ـ وقد ذكر شيخ الإسلام تقي الدين في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» شيئاً مما يفعله المشركون في زمانه وذكر شيئاً من أسباب الفتنة به فقال ـ رحمه الله ـ: ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب وفي كنيسة يرجو الإجابة للدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم، فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب، بل هو أشد لأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد، واتخاذها عيداً، وعن الصلاة عندها، وما يرويه بعض الناس أنه قال: «إذا تحيرتم في الأمور فاستغيثوا بأهل القبور» ونحو هذا فهو كذب موضوع مكذوب باتفاق العلماء، ويبين ذلك أمور أحدها: أنه قد تبين أن العلة التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة عندها إنما هو لئلا تتخذ ذريعة إلى الشرك بالعكوف عليها وتعليق القلوب بها رغبة ورهبة، ومن المعلوم أن المضطر في الدعاء الذي قد نزل به نازلة فيدعو باستجلاب خير كالاستسقاء أو لدفع شر كالاستنصار، فحاله بافتتانه بالقبور إذا رجا الإجابة عندها أعظم من حال من يؤدي الفرض عندها في حال العافية أما الداعون المضطرون ففتنتهم بذلك عظيمة جدًّا، فإذا كانت المفسدة والفتنة التي من أجلها نهي عن الصلاة متحققة في حال هؤلاء كان نهيهم عن ذلك أوكد وأوكد، وهذا واضح لمن فقه في دين الله وتبين أن ما جاءت به الحنيفية من الدين الخالص لله وعلم كمال سنة إمام المتقين في تحقيق التوحيد ونفي الشرك من كل طريق.

الثاني: أن قصد القبور عندها ورجاء الإجابة هناك أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين ولا أئمة المسلمين ولا ذكره أحد من العلماء ولا الصالحين المتقدمين، بل أكثر ما ينقل ذلك عن بعض المتأخرين، وأصحاب رسول الله ﷺ قد أجدبوا مرات



ودهمتهم نوائب غير ذلك كيوم الحرة وأشباهها، فهل جاءوا فاستسقوا أو استغاثوا عند قبر النبي ﷺ؟ بل عدلوا إلى الاستسقاء بدعاء الأحياء فرضي الله عنهم وأرضاهم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ورأيت لأبي الوفاء بن عقيل في ذلك فصلًا حسناً فذكرته بلفظه قال: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشارع من إيقاد النيران، وتقبيلها، وتخليقها وخطاب الموتى للحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى. انتهى المقصود منه. وقال شيخ الإسلام: وقد سئل عن رجلين تنازعا فقال أحدهما: لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله فإنا لا نقدر أن نصل إليه إلا بذلك[1].

فأجاب رحمه الله تعالى بقوله: إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما يأمر به وما ينهى عنه إلا بواسطة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده وهذا مما أجمع عليه أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله

---

(١) خطاب الموتى للحوائج لا شك أنه شرك أكبر وكفر مخرج من الملة، أما إيقاد النار وتقبيل القبور وتخليقها، وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخزم على الشجر فلا يكفر صاحبها بل هذه بدع وكبائر إلا إذا قصد بذلك عبادة غير الله فتكون شركاً.

أوامره ونواهيه قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل، وإن أراد بالواسطة أنه لابد من واسطة يتخذها العباد بينهم وبين الله في طلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكونوا واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ودفع المضار، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكربات وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين. إلى أن قال: فمن أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين يكونون بين الملك وبين رعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، وأن الله إنما يهدي عباده ويرزقهم وينصرهم بتوسطهم بمعنى أن الخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط يسألون الملوك حوائج الناس لقربهم منهم والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملوك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء المشبهون شبهوا الخالق بالمخلوق وجعلوا لله أنداداً، وفي القرآن من الرد على هؤلاء ما لا تتسع له هذه الفتوى، فإن هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وأنها وسائل يتقربون بها إلى الله، انتهى ملخصاً. وقد حدثني جماعة كثير مرضيون حجوا في السنة الأولى من القرن الرابع عشر أنهم سمعوا خطيب الحرم الشريف يقول في خطبته: من لم يجعل بينه وبين الله وسائط

فليس على صراط مستقيم[١]، وهذه حقيقة ما قرره أحمد دحلان فحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال شيخ الإسلام أيضاً في «الرسالة السنية» لما ذكر حديث الخوارج قال: فإذا كان في زمن النبي ﷺ من قد مرق من الإسلام مع عبادته العظيمة فليعلم المنتسب إلى الإسلام في هذا الزمان قد يمرق أيضاً وذلك بأمور منها: الغلو الذي ذمه الله كالغلو في بعض المشايخ كالشيخ عدي، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل أو صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يدعوه من دون الله، أي يقول: يا سيدي فلان أغثني، أو أجبرني، أو توكلت عليك، أو أنا في حسبك، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يجعل معه إله آخر، والذين يجعلون مع الله آلهة أخرى مثل الملائكة وعزير والمسيح والصالحين أو صورهم ما كانوا يقولون أنها تخلق وترزق وإنما كانوا يدعونهم يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله فبعث الله الرسل تنهى أن يُدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. انتهى. قال شيخنا عبدالله بن عبدالرحمن أبابطين: ونصوص القرآن كثيرة مصرحة بأن المشركين في الشدائد ينسون آلهتهم من الملائكة والبشر وغيرهم ويخلصون الدعاء لله وحده كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

(١) كان ذلك وقت العثمانيين الخرافيين وأتباعهم الغاوين، أما الآن فإن خطباء الحرم الشريف يدعون إلى عبادة الله وحده بدون واسطة أو شريك والحمد لله رب العالمين.

ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ الآيات. وقال: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ الآية. والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة والله سبحانه رضي إخلاصهم في هذه الأحوال ومقتضى قول هذا المفتري أن الله سبحانه أمر بالطلب من الأموات وغيرهم وأن الله يحبه ويرضاه وأن يكون عدم إخلاص هؤلاء المشركين في الشدائد أصوب وأن الأولى بهم الاستمرار على الطلب من الملائكة والمسيح وعزير وغيرهم لأن ذلك من الوسيلة التي أمرهم الله بها في زعم هذا الضال. انتهى.

ثم قال دحلان: وأما كلام هؤلاء المانعين من التوسل والاستغاثة بالأموات دون الأحياء فإن كلامهم يفيد أنهم يعتقدون أن الحي يقدر على بعض الأشياء دون الميت فكأنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه فهو مذهب باطل فهم الذين دخل الشرك في أفعالهم، انتهى.

فيقال أولاً: إن من المعلوم أن ذا الفطرة السليمة وإن كان جاهلًا يفرق بين الطلب من الحي الحاضر مما في يده أو دعائه له، وبين الطلب من الميت والغائب، ولا يسوي بين الحي والميت إلا من اجتالته الشياطين عن الفطرة التي فطره الله عليها، أو إنسان أعماه الهوى والتقليد وتربى على ما تربي عليه وألفه من التنديد وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ معنى ذلك أنه لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الحي والميت، شبه المسلم بالحي والكافر بالميت والمشبه به الحي والميت، فلما كان معلوماً عند المخاطبين أن الحي والميت لا يستويان يقول سبحانه: وكذلك المؤمن والكافر فمن سوى بين الحي والميت بقوله يطلب من الميت ما يطلب من الحي فقد سوى بين ما فرق الله والناس بينهما، حتى المجانين يفرقون بين الحي والميت فلو قصد

مجنون بيت إنسان ليطعمه فوجده ميتاً وأهله عنده لعدل إلى الطلب من أهله الأحياء الحاضرين عنده ولم يلتفت إلى الميت، وهذا الضال لم يكفه ما شبه به المشبهون قبله حتى قال إن هؤلاء المانعين من التوسل فإنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه فهو مذهب باطل وهم الذين دخل الشرك في أفعالهم وهذا نتيجة اعتقاده لمذهب القدرية المجبرة القائلين أن العبد مجبور لا فعل له فانظر إلى بلادة هذا الضال وجهله وفساد تصوره وعقله حيث يقول إنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه وهم الذين دخل الشرك في أفعالهم، وقد عرفناك فيما تقدم أن إثبات المخلوقات أسباباً لا تقدح في توحيد الربوبية ولا تمنع أن يكون الله خالق كل شيء ولا توجب أن يدعى المخلوق دعاء عبادة واستغاثة أو استعانة فيما لا يقدر عليه إلا الله لكنه سبحانه وبحمده جعل لهم دخلًا واختياراً في الأفعال فيثابون ويعاقبون بذلك ولذلك نسب الظلم وغيره من أفعال العباد إليهم، وأماطلب الأشياء من الحي الحاضر الذي تحت قدرته بإقدار الله له عليها فهو جائز ولا يمنع منه قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾. وقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾. وقال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾. وقال الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق(١)، وقد استعار النبي ﷺ أدرعاً من صفوان بن أمية وهو مشرك، واستعان في بعض غزواته بأناس من المشركين، ومازال المسلمون يستقضون حوائجهم من المسلم والذمي والبر والفاجر، فمن قال إن هذا قد دخل في الشرك فاعله كهذا المضل فقد ضل في عقله ودينه، ونصوص القرآن كثيرة في

---

(١) تقدم

إبطال[١] من سوى بين الحي والميت في استقضاء الحوائج التي أقدر الله بعض الأحياء عليها والله سبحانه جعل أهل الدنيا فيها وخولهم ما ملكهم فيها ولا يتم أمرهم إلا بمعونة بعضهم بعضاً ولم يحجر عليهم سبحانه التعاون والتناصر فيما لا يسخطه، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه يوضح ذلك أن دعاء الإنسان المسلمين واستغفاره لهم وقضاء حوائجهم ومعاونتهم عليها من الأعمال الصالحة المرغب فيها فلو كان هذا يحصل من الميت لم يكن عمله قد انقطع وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له**»[٢] . فدل على أن هذه الأشياء التي يطلبها المشركون من الأموات من قضاء حوائجهم والدعاء لهم ونحو ذلك التي هي أعمال صالحة من الحي قد استحال وجودها من الميت فطلبها منه طلب مستحيل لعجزه حسًّا فلا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرًّا ولا حياة ولا نشوراً والذي يطلبها منه داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ . ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ . والنبي ﷺ فرق بين الحي والميت في الحديث المتقدم آنفاً كما فرق الله بينهما في مثل قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ وجميع العقلاء بل المجانين كما قدمنا يفرقون بين الحي والميت، فالميت لا يستجيب لداعيه ولا يسمع دعاءه ولو فرض سماعه فهو عاجز لا ينفع من دعاه كداعي الجمادات، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا

(١) لعله سقط: (دعوى).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٨٤) وتقدم.



﴿يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ فالمتصف بعدم سماع الدعاء وعدم الاستجابة أو المتصف بأحدهما ممتنع دعاءه شرعاً وعقلاً تتناوله هذه الآية ونحوها من آي القرآن، وقد عرفناك فيما تقدم أن لفظة الذين لا تستعمل عند البيانيين إلا لمن يعقل وهذا بحمد الله واضح إلا لمن جعل الله في آذانه وقراً عن فهم كتابه وهو عليه عمى. فلا حيلة فيه. اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل.

وأما قول هذا الضال: إن هؤلاء الذين منعوا التوسل والاستغاثة بالأموات أنهم فارقوا الجماعة والسواد الأعظم قد تجاوزوا الحد وكفروا أكثر الأمة واستحلوا دماءهم وأموالهم انتهى.

فأقول: هذا مما لبس به هؤلاء الضلال على الجهال والطغام فإن النبي ﷺ أخبر أن الإسلام: «**بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**»[١]. وقوله: «**سيأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه**»[٢]. وقوله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»[٣]. وقد ذكر سبحانه في كتابه قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ولما ذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٩٠٨/١٩٠٩ وابن عدي في الكامل ٤/٢٢٨ عن علي، وأخرجه الديمي في مسند الفردوس ٣٢٦٦ عن معاذ بن جبل. وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٣١١٣٥ ونسبه للحاكم في تاريخه عن ابن عمر.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٣) من حديث أنس بن مالك وأحمد (١٦٣٢٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

سبحانه في سورة الشعراء قصص الأنبياء قال في آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فالمستدل بالكثرة على الحق قد ضل ضلالاً بعيداً. وقال العلامة ابن القيم: واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفه أهل الأرض. قال عمرو بن ميمون: سمعت ابن مسعود يقول: عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة. وسمعته يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن وقتها فصل الصلاة وحدك وهي الفريضة، ثم صل معهم فإنها لك نافلة، قلت: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثونا قال: وما ذاك قلت تأمرون بالجماعة ثم تقولون صل الصلاة وحدك قال: يا عمرو بن ميمون لقد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية أتدري ما الجماعة؟ قال: لا. قال: جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، قال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كان عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ، وقال بعض الأئمة: وقد ذكر السواد الأعظم: أتدري ما السواد الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه، ولما وقعت المحنة في زمن الإمام أحمد وحمل الناس الخليفة على القول بخلق القرآن، وثبّت الله الإمام أحمد صار هو الجماعة وكان الخليفة وأتباعه هم الأكثرون الشاذون فمن جعل السواد الأعظم هم الأكثرون فقد خالف المعقول والمنقول وسلك غير سبيل المؤمنين، إذ جعل الأكثرين هم الطائفة المنصورة التي لاتزال على الحق وقد قال العلامة المحقق أحمد بن إسماعيل ـ قدس الله سره ونور ضريحه ـ في كتابه «تطهير الاعتقاد عن الشرك والإلحاد»: اعلم أن هؤلاء الملاحدة يقولون لما كانت هذه الأمور إشراكاً وكفراً كان العلماء المنكرون لها

شرذمة قليلين ذليلين والحال إنه أخرج ابن ماجة عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار**»[١] . فأقول معنى هذا الحديث إذا انفرد ملحد زنديق بهواه في مشرب زائع مثل الملاحدة والزنادقة فلا تتبعوهم، وإنما اللازم عليكم اتباع السواد الأعظم وأنه إذا اجتهد الفريقان في القرآن اتباعاً واقتداءً بالمعاني المنقولة عن الصحابة المتعارفة في وقتهم ويكون غرض كل واحدة منهما ابتغاء مرضاة الله وقبول أمره ولم تدخل عليهم الأهواء ورسوم الآباء كاجتهاد الصحابة والسلف ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وتكون منهما طائفة كثيرة والأخرى قليلة فاللازم موافقة الكثيرة لأن لكثرة الآراء أيضاً دخلًا في الإصابة، وليس معناه أن يكون اجتهاد الشرذمة القليلة على ذلك النهج المرضي خطأ، والكثيرون من أهل الأهواء يحرفون القرآن عن معانيه المنقولة المسنونة المتعارفة بين الصحابة والسلف ويجرونه إلى أهوائهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة للاستراحة وإسقاط التكليف وتوجيه الخطاب عن أنفسهم ويرجحون أغلب الأقوال المخالفة للأحبار والرهبان في الاقتداء والاتباع على الآيات والسنن كقوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومع ذلك يكون اللازم على الحزب القليل اتباعهم واقتداؤهم فإن الواحد المجدد لمساع قديمية إبراهيمية وموسوية من إفراد التعظيم لرب العالمين والمروج للشرع لمشاغل مرضية عيسوية

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٩٣) من حديث ابن عمر مرفوعاً «إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار». وقال: «حديث غريب».
وأخرج ابن ماجه (٣٩٤٠) من حديث أنس بن مالك مرفوعاً: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم».

ومحمدية من توحيد العبادة والتذلل لفاطر الأرض والسموات وجوده مثل الكيمياء وشبيه بالعنقاء كما أخرج الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»[١]. وأيضاً أخرج أبو داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[٢]. وقال سبحانه: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ**﴾ الآية. وقال حكاية عن قولهم: ﴿**وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ**﴾. ﴿**وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا**﴾ الآية. وقال: ﴿**إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾. وقال: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾. وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن**»[٣]. وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع**». قيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: «**ومن الناس إلا أولئك**»[٤]. وأخرج الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**»[٥]. وأخرج

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٧) ومسلم (٤٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٧)، و(٦٧٧٤)، ومسلم (٤٨٢٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٧٤).

(٥) أخرجه الترمذي عن أنس (٢١٨٦) وقال: «حديث غريب». وأخرجه أحمد (٨٧١١) و(٨٧١٣) نحوه عن أبي هريرة.

الترمذي وابن ماجة عن أبي ثعلبة الخشني في آخر حديثه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإن وراءكم أيام الصبر فمن صبر فيهن كقبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**»[١] . أي في غير أجر خمسين. وأخرج مسلم حديث: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**»[٢] . وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة**». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣] . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ فقال: «**يخرجون منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً**»[٤] . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون أفواجاً**»[٥] . ، اخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع السيف في أمتي لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، ولاتزال طائفة من أمتي على الحق**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٤) وأبو داود (٣٧٧٨) من حديث أبي ثعلبة مطولاً، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٦٥) وقال: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه الدارمي (٩٠) عن أبي هريرة وأخرجه أحمد (١٤١٦٩) عن جابر بن عبدالله.

(٥) أخرجه أحمد (١٤١٦٩) عن جابر بن عبدالله.

ظاهرين لا يضرهم من خالفهم»[1] . فلو كان الغلبة لأصحاب السنة واليقين والكثرة لعلماء الدين، كيف لا يوجد في مائة منهم واحد محق مصيب؟! وكيف يكون بعث المجدد الواحد بعد مضي الدهور ونسل القرون وسلف الآباء وخلف الأبناء؟! وكيف يكون أكابر كل قرية مجرميها وكافريها وأراذلها محقيها مصيبها؟! وكيف يأكل كثير منهم أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؟! وكيف يكون الدين غريباً مع كثرة أهله المنتسبين؟! وكيف يتوحد الحزب الناجي بين الأحزاب العديدة الهالكة مع غلبة العلماء الناجين؟! وكيف يكون الصابر في دينه كالصابر على الجمر مع كثرة الناصرين؟! وكيف يخرج الناس من الدين أفواجاً من الأفواج أهل الدين؟! وكيف تلحق قبائل من الأمة بالمشركين وتعبد قبائل من الأمة الأوثان؟! وتكون طائفة واحدة من بينهم موحدة على الحق مع كون أكثر الطوائف موحدين محقين بل هذه سنة من السنن الأولى، فإن علماء هذه الأمة كأنبياء آل إسرائيل في تجديد التشريع، وأن أحبار آل إسرائيل كلما بدلوا الشرائع الموسوية جاء إليهم رسول شرع شرائع التوراة وكانت أنفسهم لا تهوى ما جاء به فكانوا يستكبرون عليه فقتلوا الأنبياء ظلماً بغير حق زكريا وشعيب ويحيى وغيرهم ما صدقهم إلا القليل، وأيضاً لما جاء إلى أولئك الأحبار المسيح ما وافقه إلا الأرذلون وشرذمة قليلون ثم أولئك الأحبار والرهبان كلهم كذبوه وبهتوا أمه وهموا بقتله، ثم جاء إليهم محمد ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥٤٤) والترمذي (٢١٥٥) وأبو داود (٣٧١٩) عن ثوبان دون «وإذا وقع السيف.. إلى الأوثان». وهذا أخرجه الترمذي (٢١٢٨) عن ثوبان مرفوعاً: «إذا وضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة». وقال: «حديث حسن صحيح». وأما قوله: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان..» فأخرجه الترمذي (٢١٤٥) وقال: «حديث حسن صحيح».

فما صدق من جموع أولئك الأحبار وألوف أولئك الرهبان إلا القليلون كعبدالله بن سلام وأضرابه، وكذا من القسيسين ما صدقه ولا معشارهم فهل كان اعتبار لقولهم لو كان لمحمد وعيسى صدق في رسالتهما لصدقتهما أكثر الأحبار والرهبان، فعلم أن الاعتبار للمحق ولو كان واحداً لا لكثرة الأباطيل وأهليها، وأيضاً هل كان على نفر الحواريين وعبدالله بن سلام وأضرابه اتباع السواد الأعظم من الأحبار والرهبان في تكذيب عيسى ومحمد لمجرد كثرتهم، وأيضاً هل يلزم على قول هؤلاء الملاحدة الفرقة الواحدة الناجية المستثناة من الطرائق الثلاث والسبعين الهالكة اتباع تلك الطوائف لمجرد كثرتهم وكونهم سواداً أعظم ومع قطع النظر عن اتباع القرآن والسنة والابتداع فيهما، فالرزية كل الرزية هذه أنه أول ما يوجد الموحدون الراغبون إلى توحيد الله الصادعون بالحق التاركون لدنياهم ابتغاء مرضاة الله مولاهم فإذا بعثهم الله شرذمة قليلين تجديداً لحجته عليهم ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حي عن بينة فيقول المشركون: الفرقة الهالكة كثيرة ثنتان وسبعون فرقة، وأنتم فرقة واحدة فاتبعوا السواد الأعظم الأظلم في الإشراك في عبادة من دون الله وإلا فخلعتم ربقة الإسلام من أعناقكم! وما يعلمون أنا خلعنا ربقة الأوثان من أعناقنا وكفرنا بعبادة الطواغيت إيماناً بتوحيد ربنا تعالى جده، سبحان من طبع على قلوب أعدائه قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الآية. وأخرج الترمذي عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**»[1]. وقال: حسن صحيح. قال ابن المديني: هم أصحاب الحديث. وأخرج

(١) أخرجه الترمذي (٢١١٨) وقال: «حديث حسن صحيح».

الشيخان عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[١] . وأخرج أبو داود عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال**»[٢] . وأخرج الحاكم عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة**»[٣] . انتهى.

أيظن مسلم أن هذه الأحاديث الثابتة الصحيحة المصرحة باستقامة طائفة من الأمة على الحق أنهم الأكثرون بل هم الأقلون إلا من طبع الله على قلبه. اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، فإذا تقرر عندك ما أورده هؤلاء الأئمة الأعلام من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة من أن الجماعة والسواد الأعظم هم أهل الحق الذين استقاموا على ما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان عرفت غربة الدين، ولم تلتفت إلى كثرة الهالكين، والميزان العدل هو الكتاب والسنة وعليهما تعرض أقوال الناس وأعمالهم فما شهدا له بالصحة فهو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، وإمام الدعوة النجدية ـ رحمه الله ـ وأتباعه متحققون أن في أمصار المسلمين من هو مستقيم على ما بعث الله به المرسلين من إخلاص العبادة والدعوة لرب العالمين في كل أوب وصوب، شرقاً وغرباً ويمناً

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩) و(٣٣٦٩) و(٦٩٠٦) ومسلم (٣٥٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٢٥) وأحمد (١٩٠٤٩) و(١٩٠٧٣).

(٣) أخرجه الحاكم ٤/٤٤٩ و٥٥٠ وصححه في الموضع الأول ووافقه الذهبي. وفيه الربيع بن سليمان العدوي غير معروف. وصححه في الموضع الثاني بإسناد آخر على شرط مسلم. وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

وشاماً، وينكرون هذه الأمور الشركية والأفعال البدعية، وتصانيفهم بذلك طافحة لكن ليس لهم قدرة على إزالة تلك المنكرات وتغييرها لأن الغلبة لضدهم.

وأما ما ادعاه عليه أعداؤه المعاصرون له أنه يكفر بالعموم أو يكفر بالذنوب أو يقاتل من لا يستحق القتال أو يستحل دمه وماله.

فالجواب: أن نقول سبحانك هذا بهتان عظيم، بل هو وأتباعه بحمد الله لا يجترؤن على تكفير المعين ولو وجد في قوله أو شعره كفراً حتى يتيقن أنه مات معتقداً ما قاله من الكفر ولعل له عذراً سائغاً ولا يسبون الأموات لأنهم أفضوا إلى ما عملوا، ورسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب كثيرة تبرأ فيهن مما نسبه إليه أعداؤه وأن مذهبه مذهب السلف الصالح المستند إلى كتاب الله وسنة نبيه، لا يكفر إلا من دعاه إلى إفراد الله بالعبادة فأبى وعاند واستكبر ولا يقاتل إلا من دعاه إلى التزام شرائع الإسلام فأبى عن الالتزام فيعامل من لم يلتزم شرائع الإسلام بما عاملهم به الصديق رضي الله عنه إذ قال: «لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة»[1]. ووافقه على ذلك الصحابة أجمعون، وقد أربى هذا القبوري المفتري الضال على ما نسبه إلى إمام الدعوة أعداؤه المعاصرون له بضلالات وخزعبلات نسبها إليه وترهات وجهالات افتراها عليه عامله الله بما يستحقه من العقوبة على افترائها في الدنيا والآخرة وسأذكر إن شاءالله تعالى في آخر الرسالة طرفاً من سيرته وما ابتلي به أهل زمانه من الكفر العظيم والشرك الوخيم.

وأما أحمد دحلان فهو يقول في رسالته: أنه لا سبيل إلى تكفير أحد من المؤمنين يعتقدون أن الله منفرد بذاته وصفاته وأفعاله، وأما

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٢) و(٦٤١٢) و(٦٧٤١) ومسلم (٢٩).

توحيد العبادة فلا إشراك فيه! فعلى قوله أن من اعتقد عدم مشاركة الباري فيما يختص به ـ كاليهود والصابئين وعبدة الأوثان ـ وكذا كل من أتى بما يخرجه عن الإسلام، كالاستهزاء بالله أو بآياته أو برسله، أو جحد الصلاة أو غيرها من الشرائع، فعلى معتقده أنه لا سبيل إلى تكفير من تقدم ذكره لأنهم يعتقدون انفراد الله بجميع ما يختص به! وكأن هذا القبوري لم ينظر في كتب اتباع الأئمة الأربعة فأقاويلهم في تكفير من أتى مكفراً بعد إسلامه كثيرة جدًّا وأوسعهم في التكفير الحنفية رحمهم الله تعالى، وبعض الحنابلة بلغها إلى أربعمائة مكفر، والمالكية والشافعية لهم فيها مباحث طويلة وتعليلات جزيلة، وأسلوب أهل كل مذهب أن يجعلوا باباً مستقلًا يسمونه (باب الردة) أو (باب حكم المرتد)، ويفسرونه بأنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه شكًّا أو نطقاً أو اعتقاداً أو فعلًا، ثم يوردون المكفرات ويطيلون فيها المقالات، وهذا القبوري عمى عن ذلك كله وقد نقض هذا الملحد أصله لما افترى واختلق الخزعبلات والكذب على إمام الدعوة أنه يقول للمرأة إذا أرادت أن تسلم، احلقي رأسك؟ فقالت له امرأة أمرها بذلك يجب عليك يا شيخ أن تأمر بحلق لحى الرجال إذا أسلموا فبهت الذي كفر! وقد كفَّر هذا الضال من اعتقد انفراد الرب بذاته وصفاته وأفعاله ومن دعا إلى ما دعا إليه النبي ﷺ من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، فأعجبوا لضلال هذا المفتري وحماقته أيها السامعون لعلكم ترحمون، ولعنة الله على الكاذبين.

وأما قول القبوري دحلان أن حجة المانعين من التوسل أنه لا يطلب إلا من الله قصدهم لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر، فلو قال أن ذلك خلاف الأدب وأجازوا التوسل

وشرطوا فيه أن يكون بالأدب والاحتراز من الألفاظ الموهمة لكان له وجه.

أقول وقد كفانا الشيخ العالم العلامة المحقق المدقق خلف السلف وقدوة الخلف حسين بن مهدي النعمي الصنعاني ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ الجواب عن هذه المسألة لما أفتى علماء الحرم الشريف في جواز التوسل بقولهم بل قصارى أمرهم التوسل إلى الله تعالى في قضاء الحوائج بالأقربين إلى الله في إجابة الدعاء وقضاء الحوائج بأهل الخير، وقد ثبت أن عمر كان يستسقي يتوسل بالعباس عم النبي ﷺ فيسقون[1]، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة فصار ذلك إجماعاً غايته أن العوام قد تقع منهم عبارات موهمة لعدم إحسانهم العبارة اللائقة مع كونهم مركوزاً في طبائعهم أن المؤثر في الأمور كلها خيرها وشرها هو الله تعالى، والعلم بالعبارة علم زائد على العلم بأصل المعنى، ومثل ذلك لا تؤاخذ به العامة بمنزلة اللغو في اليمين فأحببت إيراد جوابه هنا وقد تركت كثيراً منه لينظر الموحد ما عليه أكثر سكان البسيطة من إشراكهم أهل الأجداث المقبورين في عبادة رب العالمين، فيزداد لله شكراً وليعلم كذب الشيخ أحمد دحلان وضلاله إذ قرر في رسالته أن أهل الحق هم الأكثرون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الشيخ حسين: أقول في هذا الكلام وهو ذكر التوسل بالأقربين إلى الله تعالى في قضاء الحوائج وما ترتب عليه أو نشأ منه غائلة الضرر المتلف ومن عقل الإيمان بالله وتوحيده لا يلتبس عليه الحال ولا تشتبه عليه شمس الضحى بحالك الليالي حتى يتوهم أن تلزيق هذا

(١) تقدم.



يروج في الملة المبرأة عن السفه ونصرة الباطل أغرب من اعوجاجه وميله وأعجب من ولوج العوام في ظلمة ليله وكاد أن ينسينا هذا الكلام ما كنا بصدده أولاً من تقرير منع وضع القباب والمشاهد والبناء على القبور وشبه ذلك فإنه أربى على ذلك لما كان خروجاً عنه إلى نهاية مطامح نظر العدو ومرامي قصده، ولما كان الثاني نتيجة الأول ومرمى غرض إبليس من الدلالة على من خفي عليه الأمر من الرضا بالأول إلى الرضا بالثاني، ومن يتكلم بمثل هذا الأمر لا يدري ما فشا في العامة ومن امتاز عنهم بالاسم فقط وما صار هجيراهم عند الأموات ومصارع الرفات من دعائهم والاستغاثة بهم والعكوف حول أجداثهم ورفع الأصوات بالجؤار وإظهار الفاقة والاضطرار واللجأ في ظلمات البحر والتطام أمواجه الكبار، والسفر نحوها بالأزواج والأطفال والله قد علم ما في طي ذلك كله من قبيح الأفعال والخلائق وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه وإهمال حقوق ذي العزة والجلال، والالتجاء المحقق إلى سكان المقابر في فتح أرحام العقام وتزويج الأرامل والأيامى من الأنام، واستنزال السحائب والأمطار واستماحة المأرب والأوطار ودفع المحاذير من المكاره والشدائد والإناخة بأبوابها لنيل ما يرام من الحوائج والمقاصد، وبالجملة فأي مطلب أو مهرب ترى هنالك ربع المشهد مأهولاً وقد قطعت إليه المهامه وعوراً وسهولاً والنداء لساكنه أن يمنح أو يريح والتأدب والخضوع والتوقير والرغبة ومشاعر الرهبة، وينضاف إلى ذلك خصوصاً في الزيارات نحر الأنعام وترك الصلاة وصنوف المناهي وأنواع المعاصي للمليك العلام، وكثيرون ـ لا طمع في حصرهم ولعلهم العموم إلا من شاء الله ـ إن لم تلد زوجة أحدهم أو طال مرض مريضهم أو أصابت امرأة منهم تاقة النكاح أو قحطت الأرض أو

دهمتهم نازلة من عدو أو جراد أو غيرهما أو راموا لأمر أعيا تحصيله فالولي في ذلك نصب العين، وإذا جرى المقدور بنفع أو دفع أو حصول مكروه كان ثمرة الاستغاثة والإنابة إليه في الأولين ودليل ضعيف الاعتقاد أو اختلال شرط من المنيب أو نحوهما في الثالث[١] فصار مدار التصرف والحصول له خاصة أو مع الله في شيء دون شيء، وحاصله أن اليد الطولى في الملك والملكوت كما سيأتي تحقيق هذا وشرح وقوعه في أفعال من عليها وذكر ألفاظهم مبينة مفصلة مصرحة بما حكيناه عنهم وأنهم قد ذهبوا هذا المذهب المشروح آنفاً في سكان التراب وأنزلوهم هذه المنزلة المحكية.

وقد سردنا بعضه للبيان ولئلا يتمكن الخصم من جحود أو يقدر على مدافعة وليعرف كل سامع لما نمليه أن القائل بأن العوام قد يقع منهم عبارات موهمة وقصارى أمرهم التوسل إما غالط وإما خالط أو جاهل للدين، وإلا فما بعد هذا فإن العامة في كثير من حالاتهم وتقلبهم قد أبدلوا معالم الشرع بسواها في هذه الجهة فجعلوا الذهاب إلى قبة الشيخ والتضرع له والإلحاح عليه عوضاً عن الخروج إلى ظاهر البلد للاستسقاء والإنابة إلى الله في كشف تلك النازلة أو باباً مثل الخروج عند بعضهم، وأما بعض فلا يعرف لهذا المقام وظيفة سوى عتبات المشائخ، هذا مثال وسلكوا هذا المسلك في مريض أعيا دواءه وذليل قهره أعداؤه وذي سفينة عصفت عليه الرياح، وتجارة امتدت آمال قاصدها إلى نيل الأرباح فيقول أحدهم: التمس بركة الشيخ وكرامته فأنزل بهذا البلد وبعد ذلك حصلت لنا من الشيخ كرامة أو ما قبلنا أو شبه ذلك فهذا مجرد توسل وسنبطله أيضاً إن شاءالله تعالى وعبادة موهمة أم إشراك بذي

(١) الأول والثاني هما الدفع والنفع، والثاني حصول المكروه.

التصرف في الملك والملكوت لأنه إنما بقي له تعالى الإمكان دون أن هذا الأثر اختص به عن أن يكون للشيخ دخل فيه بأي وجه لا يتأهل له وتأهيله بلا برهان من لغو الشيطان وافتانه بلا شك عند أهل الإسلام، ونية الوساطة على فرضها سنبين ما فيها وإلا فهي لا تخالها تكون وخاطرة بالبال في حالاتهم تلك بحيث إن جماهير العامة لا يحصون في أقاليم واسعة وأقطار متباعدة ونواحي متباينة لما كانوا نشأوا لا يعرفون إلا ما وجدوا عليه من قبلهم من هذه العقائد والمفاسد فتجدهم إذا شكا أحدهم على الآخر نازلة نزلت فلعله لا يخطر له في باله الأهل قد ذهبت إلى الولي وقد يضرب له الأمثال بأن فلاناً كان من أمره كذا، وفلان كان من أمره كذا حتى أنسوا بهذا الباب أكثر ما يصف الواصف وبقدر أنسهم به نسوا ما رسمه لهم المؤدب الحكيم الناصح وجهلوه بالمرة فانطمست لديهم معالمه، وبعضهم قد يعرف شيئاً من ذلك لكنه يؤثر عليه ما ذكر إما لعدم وثوقه بذلك وإما لغلبة انفعال نفسه لخاطر السوء وإما لسلطان العادات، وبعضهم وهو خيرهم يجعل البابين محلًا صالحاً مدخلًا للدفع والنفع حتى أنا شاهدنا ما لا يحصى قدره الآن إذا سقطت دابة أحدهم أو عثر هو أو بغته حادث من هذا القبيل نادى ببديهة الحس يا هادياه، يا ابن علون، يا جيلاني، فما من مسلم عرف معنى الإيمان بالله حقًّا وتوحيده وأنس بطرائق هذا الدين الحنيفي قبل استيلاء الأحدوثات يرى شيئاً من هذا حسناً بل جائزاً بل معصية لا تدافع التوحيد فضلًا عن أن يوصل كونه باباً من الدين، والدين بحمد الله واضح المناهج بين المدارج لا يحتمل أوهام من زل، أفيقول ذو عقل سليم إن ما حكيناه مجرد توسل وعبارة موهمة بمنزلة اللغو في اليمين إلا من لا يفهم ولا يدري! ومن عجيب ما أتته العامة من طرائق هذا الباب

وغرائبه الفاحشة التي زعم ذلك القائل أنها مجرد توسل وعبارة موهمة ما شاهدناه بالمعاينة في راية مشهد من المشاهد هذه راية البحر التيار فلان بن فلان به أستغيث، أو أستجير وبه أعوذ من النار وإلى هذا اللفظ زيادة تركتها لأني لا أستثبتها الآن، وهي من هذا النمط المستطرف، ومن عجيب طرائفهم في هذا الباب قول بعضهم من قصيدة وهي شيء يقشعر منه الجلد وإنما حكيناه لما زعم القائل أنها عبارة موهمة بمنزلة اللغة في اليمين:

يا سيدي يا صفي الدين يا سند	يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته	وأنت لي ملجأ من حادث الدهر
أمدني بمواد اللطف منك وكن	لي الكفيل بكشف الضر ونيل الظفر
وامنن علي بتوفيق وعافية	وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أكف الظالمين إذا	امتدت بسوء وأمر مولم نكري
فإني عبدك الراجي بودك ما	أملته يا صفي السادة الغرر
وقد مددت يد الرجوى على ثقة	مني لنيل الذي أملت من وطر

انتهى المراد نقله منها فلا ندري أي معنى اختص به الخالق سبحانه بعد هذه المنزلة من كيفية مطلب أو تحصيل مأرب وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر، فإن كان هذا وما يعطى شيئاً منه عبارة موهمة بمنزلة لغو اليمين فعلى السفسطة السلام، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون كل ما عبدوه من دون الله لشيء من هذا ولا لما هو أقل منه كما سنشرح لك حالهم، ومن غرائب العامة في هذا الباب ما حدثنا به الثقات الأثبات عن حي من الأعراب حضرت أحدهم الوفاة فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: أين الله؟! قل يا عمراه! كذا حدث أولئك سيد ذلك الحي بمجمع من أهل المحل على وجه اليقين المشهود عندهم، ومن ذلك أن حيًّا من أهل البوادي إذا أرسلوا أنعامهم

للمرعى قالوا: في حفظك يا فلان، يعنون ساكن مشهدهم، وأنهم إذا أردوا العزم إلى جهة استأذنوه والعمل في الجواب على قيم المشهد حتى أنه اشتد المرض برجل من العامة فعزم إلى الولي يستجير به من الموت فمات هنالك، نسأل الله العافية.

ومنهم من يخاطب الولي بزعمه فيقول: يا خالق المولودين ودي[١] تخلقه مطهوراً، ومنهم أقوام يخاطبون مقبوراً من مسافة أربعة برد وينادونه يسألونه المطر، وكثير لا يدخلون تحت حد الإحصاء إذا كان الحلف بالله تعالى فربما أقدم عليه الحالف حتى إذا كان بصاحب القبر أو حوله فلا يتجاسر قط إن كانت يميناً فاجرة، وقد لا يرضى المحلوف له إلا بذلك دون الرسم الشرعي ويعتقد أنه إن أقدم الحالف فإما باراً أو بادره الولي بالعقوبة، وهذا باب عمت به البلوى وأصاب شواظه كثيراً من العامة لا يرضى من خصمة مثلًا إلا باليمين على الشيخ أو به، وساعدهم في ذلك بعض الذين انتصبوا للحكومة بين العباد وللجهل بما يلزم الذمة، وكانت منهم تلك المساعدة ووقع في الحضر من جهالة العامة لما أنهى صورة تقرير ممن يظنونه أخا علم فيقول ذلك الحاكم: لا بأس أجب إلى الحلف على قبر الشيخ، فإن رجع عن الإصرار على اليمين ظن الحاكم أن قد أتى على الوجه الأحمد الذي به يخرج الحق ممن هو عليه، وما علم ما تضمنه مقامه هذا من تبديل حكم الله تعالى إذ حكمه الذي لا يلتبس مطلق اليمين إلا ما صح فيه تغليظ بزمان أو مكان مثلًا إن كان في شخصه وشخص دليله بحيث إن الإجابة إلى تغليظ لم يرد به شرع صحيح والإلزام به بلا وجه بين واعتبار هذه الجهة قول على الله تعالى بما لا يصفه اللسان، وتشنيع في الدين لم يأذن

(١) يعني: أرغب.

به الله تعالى، وتقرير لهذه الشناعة في قلوب العامة، وقد بعثت الرسل بقلع أظفارها وإيثار لغير الله تعالى عليه والخوف مما سواه دونه وهدم الوقوف على مطلق رسم ديني بفج ضده، ولقد بلغنا أن رجلًا من أهل ذمار ولي القضاء بمدينة بيت الفقيه ابن عجيل في زمن قريب من عصرنا هذا، فتداعى عنده رجلان من أهل الجهة وجبت اليمين على أحدهما فأراد تحليف خصمه على مشهد الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل عملًا بما في باله وعادة من هناك، فقال الحاكم: والله ما يحلف لك إلا في مقامي هذا، فألهم الله الرجل حينئذ للفطرة الإسلامية والطريقة الإبراهيمية ونما إلينا بطريق قوية أن رجلًا حلف لغريمه أن لا حق له فبعد ذلك سأله اليمين بمعتقد يسمى شويع فنكل وسلم الدين! أترى عاقلًا يجوز مثل هذا فإنا ننزه العالم أن يقول هذا كله عبارة موهمة لعدم إحسان السالك لتلك العبارة اللائقة! وبالجملة فأمر العامة في هذا النحو غريب بالنسبة إلى الإسلام كل من عرف الحقيقة ونظر ما صاروا عليه من ذلك وجد المضادة لله تعالى وتوحيده فأشبه كثير من أفعالهم وأقوالهم وتلعبهم وتصرفاتهم والطمع في حصرهم طمع في محال كضبط الريح والبحر وهو ظاهر شهير على رؤوس الخلائق، فإنما جهل قدره ومنافاته لما دعت إليه الرسل لما تعفت رسوم شرعه عند الأكثرين ولأنسهم بكثير من أضدادها، وبضدها تتبين الأشياء فإنه إنما فاه هذا بهذه الكلمة وهي قوله: قصارى أمرهم التوسل وغايته يقع منهم عبارات موهمة، لأنه خفي عليه مشارع الحقائق وما سقنا هذه الكلمات عن العامة إلا على سبيل المثال ليعلم غلطه في كون غاية أمرهم عبادة موهمة وهذا شيء لا يختص به الواحد ولا الاثنان ولا البلدة ولا البلدتان ولا القطر ولا القطران بل عم أمر المشاهد وعقائد الأموات حتى آل

الأمر إلى أنه جنى الشرك غضًّا طريًّا، ويبلغنا من ذلك الكثير التي لا تحويه السطور سوى ما سمعناه وشاهدناه، ونحن ببلد أقل شيء هذا القبيل فيها بحمد الله بل يكاد يلتحق بالمعدوم بالنظر إلى ما سواها، وإلا فمن سكن يغرس والمخا وصعدة وغيرها من قطرنا هذا خاصة كيف سواه، والعجب إن كان حيًّا والله الهادي.

ومن ذلك امرأة كف بصرها ومات ولدها فنادت وليها: أما الله فقد صنع ما ترى ولم يبق إلا حسبك في! ومن ذلك وهو من أشهر عجائبهم المعلومة في نواحي من البلدان شراؤهم الأولاد بزعمهم من الولي بشيء معين فيبقى ثمنه رسماً جارياً يؤدى كل عام للولي، وإن كانت امرأة فمهرها له أو نصف مهرها إذ هي مشتراة منه ولعله ينقد شيء من هذا في بعض النواحي، فكم له من أخوات عند التصفح، ومن ذلك وهو من طرائفهم الشهيرة أيضاً ترك أشجار ومراع حول المشهد لمكان قربها منه مع الحاجة إليها فتبقى على ممر الأزمان سائبة! ومن عجائبهم ما حدث به جمع من أهل الدين أنه وقع في زيارة بعض المشاهد اجتماع خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال فكان هناك من القبائح ما منه السجود للمعتقد، شاهد ذلك الجمع ما ذكر عياناً، فلعل هذا عبارة موهمة بمنزلة اللغو في اليمين! ولو كان المتكلم بهذا في غير مكةشرفها الله تعالى لجوزنا أنه لم يبلغه ولم ير شيئاً من هذه الضروب التي سردناها أو نظائرها، ومن ذلك وهو من غرائب الانحلال أن جماعة من العامة خرجوا من مسجد بجوار مشهد بعد أن صلوا فريضة من المكتوبات فدخلوا المشهد فرفعوا وضموا وركعوا إلى جدار القفص، ومن ذلك وهو أيضاً من طريف ما يحكى أن رجلًا سأل من فيه مسكة من عقل فقال: كيف رأيت الجمع لزيارة الشيخ؟ فأجابه لم أر أكثر منه

إلا في جبال عرفات، إلا أني لم أرهم سجدوا لله تعالى سجدة قط، ولا صلوا مدة الثلاثة الأيام فريضة! فقال السائل: قد تحملها عنهم الشيخ!! قلت: وباب تحمل الشيخ مصراعاه ما بين بصرى وعدن، وقد اتسع خرقه وتتابع فتقه ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد وساكن البلد والمشهد أمر شهير في العامة، ولعله عند الرجل عبارة موهمة كما قال! فقل لي أي ملة صان الله ملة الإسلام لا يمانعها كل ذلك ولا يدافعها قلت: ولقد أذكرني هذا ما سمعت بعض الأفاضل يحدث أن رجلين قصدا الطائف من مكة المشرفة وأحدهما يزعم أنه من أهل العلم فقال له رفيقه ببديهة الفطرة: أهل الطائف لا يعرفون الله تعالى إنما يعرفون ابن عباس، فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافية لأنه يعرف الله! ويضاهيها ما حكاه لنا بعض من جاور بالبلد الحرام أن رجلًا كان ببعض المشاهد بمكة فقال لمن عنده: أريد الذهاب إلى الطواف فقال له بعض كبرائها: مقامك ههنا أكرم! وما شئت من هذا الطغيان المجاور.
وتالله لو ذهبنا نقب عما يحرم الله وهذه الجهالات وما يجترىء عليه السفهاء هنالك لحصلنا على ما يفوق الطاقة ضبطه إلا تكلفاً إن كان، وفي الناس من يخاف الله ويستحي من الكتاب والسنة، وفي الناس من يتحاشى عن الإفراط وإذا لم تستح فاصنع ما شئت، وأما ما يقع من العامة عند التطام موج البحر ونازلة باغتة وجزئيات لا تنحصر من تبادر بوادرهم إلى دعاء الولي والاستغاثة به ونسيان الله تعالى ولشريكه فقط فأمر أوسع من فج البر وأسمعناه، وصح لنا بل من التواتر هو أجل الضرورات لا يكاد يقع فيه منازعة قط من أحد من البشر، ولقد سمعت من بعض الإخوان أنه كان نازلاً بمدينة زبيد في سابق الأيام وأن بها قوماً يقرؤون صحيح البخاري فإذا فرغوا أما أحياناً أو مطلقاً ذهبوا

إلى مشهد الجبرتي فيما يغلب على ظني الآن ويحتمل غيره، فيظلون عاكفين هناك ما شاء الله تعالى وعليهم السكينة والوقار وضرب من الخضوع والتأدب لنازل الحفرة فالله أعلم هل هذا عمل بشيء وجدوه في كتاب البخاري أو غيره ما هو؟ ومن عجيب أمر العامة نداؤهم المقبور: ذب عن قبتك وافعل ما يشيع به ذكرك في الآفاق، وصار كثير منهم وسيلة عند حبس القطر الذهاب إلى المشهد والعقر فيه وسؤاله، وربما يقول السادن حرصاً على الحطام: حبس القطر بسبب الإساءة إلى الولي أو منعكم نذره مثلًا فإن فعلوا، ولم يحصل المطلوب يحدث بأنه في مكة! وكلما ذكرنا ظلمات بالغة وضلالات فارغة وجهالات باردة لا يخفى وقوعها وكثرتها جداً، وذكرها الأشنع لولا مقالة ذلك القائل (إن غاية ما يأتونه عبارة موهمة) ما تشاغلنا بحكايتها وهي لا تليق إلا بسمر المعطلة، ولكن الله سبحانه وتعالى إنما بعث الرسل وأنزل الكتب وصرف المعالم الدينية لقلع عروق الجهالات تأصيلًا وتفصيلًا، حتى لقد تجاسر بعض العامة زعماً منه أنه صادق الاعتقاد في الولي أو ذو درية بما ينبغي له، فقال: أما الولي فلان فوالله إنه يحيي الموتى! فإنه حي لا يموت قومني هذا الجاثم وسط القبة الذي زعمتم أنه لا يضر ولا ينفع، والله إنه يفعل ويفعل، ولست أقول لك إن قائل هذه الخوالق واحد، ومقتضى ما ذكره ذلك المجيب أن هذا خطأ في العبارة التي العلم بها علم زائد على العلم بأصل المعنى! ومن عجيب أمر العامة تصريحهم في كثير مما يحدثه الله في أمره وشأنه في عباده وبلاده وملكه وتقليبه للدهر كيف يشاء فيقولون: فعل الولي، هذا أمر شهير بينهم لا يستطاع جحده إلا ظلماً وعدواناً ومحض المكابرة الخالية عن شبهة لا بعذر أو جهل بالواقع، ومن أقوالهم في أوليائهم: رد الجراد، واحرق الحدأه، علق

الهرة في رأس الشجر، يشفي المجانين، يقطع الحمى، يزيل الأمراض المؤلمة حتى أنهم يقولون إذا قصد البلد التي معتقدهم فيها فئام من الناس للإفساد فيها ثم رجعوا عنها أو توقفوا عن دخولها، ردهم الشيخ! وإن فعلوا بغيتهم قالوا مثلًا: كان غائباً أو ساخطاً عليهم، وأي علة اعتلوا بها، وأما الله تعالى علواً كبيراً الذي يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾. ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾. الذي يقلب الدهر ويدبر الأمر، بيده الملك والملكوت فما كأنه موجود فضلًا عن أن يكون سير فيهم هذه القوارع، وربما يقول القائل منهم بالجهة الصادقة من دون روية فتصادف ما أمر به وتوافق المهيع الإسلامي، ومن طريف أخبارهم أن منهم من يمرض فيلازم المشهد يستجير به من ذلك يتوصل إلى زوال ما به من الداء الذي قد أضناه خصوصاً إذا كان من نوع المناخوليا أو أمراض العقل قائلًا بلسان الحال والمقال أيضاً: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ أدام الله لدينا عارف فضله، ومنهم من يمكث في المشهد أياماً محبوساً بلا صلاة قط زاعماً أنه في حبس الولي وقيده لا يطلقه إلا لحاجة وما في عقله الذي تقوم به الحجة اختلاط، وإنما فسدت فطرة الأغلب بطاري العوائد حتى كأنه لا يعقل. ومن طريف أقوالهم في أوليائهم أنه يضرب من تظلم منه أو شكا به إليه ـ بصيغة المبني للمفعول فيهما ـ ويعزل الوالي إذا لم يزره ويأتي الولد إذا جومعت المرأة عند مشهده، ويسلب السلاح ويقيد ويعيش ويجير القوم، ويترك بنادقهم قصباً وعاقلهم خنثى لا ذكر ولا أنثى، ويعاقب من أخذ من ضريحة ورقة إلا للبركة في الحال، حتى

صار في بعض الجهات لا تدخل عند زوجها حتى تعزم إلى الولي وأن رجلًا زعم أن ولياً نبه عليه في النوم أن يبني عليه قال: فبنيت خوفاً منه! قلت: وباب تبنية الأموات أي بإضافة تبنية إلى فاعله، كباب تحمل الشيخ الصلاة وغيرها في السعة والشيوع، والله يغلقها كلها بنصر دينه، ومن عجيب أمرهم أن امرأة جاءت قبراً فجعلت تقول: يا سيدي بعت مالي ورحلت إليك من مسافة كذا سألتك بالله أن تشفي ولدي فإني جار الله وجارك! أهذه يا معشر المسلمين مجرد عبارة موهمة!! القوم قد سحبت عليهم العادات والخيالات أذيالها وقضى رسوم الفطر والأديان ما هم بالمحل الذي يزعمه لهم الخابطون، ومن أذيال مصيبة المشاهد التي أصيب بها الإسلام وشعائره ما ظهر وانتشر في العامة في جهات كثيرة كما هو معلوم مشاهد أن المساجد ربما تكون مهجورة وفيها من التراب والعيدان والأوساخ وزبل الأنعام وحراق التنباك وغير ذلك ما لا يقل، ومشاهد الأموات محترمة مكرمة مجمرة منظفة مكسوة مرعية مقامة متحاماً، أيقول أحد ممن تحقق بهذا الدين كل ما حكيناه عبارة موهمة بمنزلة اللغو في اليمين فبعداً للقوم الظالمين، وسحقاً لمن بدل حكم رب العالمين، ماذا ترى أيها المؤمن بالله والمتحقق بتوحيده في كل ما سلف تحريره؟ ومن عجائبهم أنه أخرب[١] بناء على معتقد من الأموات فصاحت امرأة من يشفي لنا مرضانا؟ من يقطع لنا حمانا؟ آهاً عليك يا شريف! ولما غير بعض المعتقدات صاحت العامة: ههنا سادة غيروا أربابكم بهذا اللفظ أو نحوه، ثم أقبلوا يزفون يقولون: هكذا فعلتم بأربابنا فنحن الآن نتقرب إليهم بقتلكم! وأنهم أربابنا ولا نعرف غيرهم! ولا معتقد لنا في هذا المكان إلا هم!

---

(١) أي هدم.

فهذه قطرة سردناها لتعلم الأغبياء ما صار عليه الحال مما لا يحصى كثرة وجميع سكان البسيطة إلا من أنقذهم الله تعالى قد مسهم هذا المرض المضني وعمهم هذا الداء العضال، وإن تفاوتوا في الإيغال والإغراق في هذه الضلالة فكلٌّ إلا مَنْ شاء الله قد أخذ بحظه وشارك في أصل المعنى من تعليق أمرهم بسكان القبور في جملة أمرهم وأما تفاصيلها فغير مقدورة. انتهى.

فهذا بعض ما ذكر العلامة من الشرك بالله في قطر الحجاز واليمن. وأما ما ثوى من الشرك والمنكرات والبدع الطامات في نجد وأطرافه وقطر وذلك كله في القرن الثاني عشر الذي حلت فيه البلوى وتعاظمت فيه البدع في القلوب والأهواء والشرك عرى التوحيد والتقوى، فنصبت فيه القباب على القبور والمشاهد وأخربت فيه معالم الإيمان والمساجد وعدم التوحيد ودان أهله بالتنديد بصرف خالص حق الله للأموات من العبيد ولا يعلم بلد كبيرة أو صغيرة إلا وفيها أوثان تعبد ويجأر لها لطلب الحاجات من أهل الأجداث ويسجد، وكذلك يعبدون المغارات ويطلبون من سكانها بزعمهم تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وفيه فحل عظيم الجذع تأتيه المرأة الأيم فتتحضنه وتقول: يا فحل الفحول أريد زوجاً قبل الحول! وفيه جبل الريان يأتونه الأعراب من كل مكان ينحرون فيه البدن والأغنام في رضا الشيطان، وفيها أشجار تعبد وتعلق عليها الخيوط والخرق وتقصد، ولا يكاد القلم يحصي منكراته الشهيرة وضلالة سكانه الكثيرة، وأضافوا إلى الشرك بالله ترك الفرائض وتعطيل الحدود وقطع المواريث، ومن أهل البادية من أنكر البعث وأعلنت فيه جميع المنكرات كالزنا والربا ونكاح الجاهلية وعقوق الآباء والأمهات، وغير ذلك مما يفوت العد والإحصاء،

ويتعب من إرادة الاستقصاء، فتجد البلد الضخمة ليس فيها إلا مسجداً أو مسجدين لا يصلي فيها غير الجمعة إلا الواحد والإثنان، فالمساجد فيه دامرة والمشاهد عامرة، فأشرقت لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب من الهداية أنوارها، ولمعت له من الآيات المحكمات أسرارها وتجلى له من العناية الإلهية صبحها وإسفارها، ورأى أكثر الناس وما يعتقدون ولسان حالهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ فشمر عن ساق الجد والاجتهاد، ورحل لطلب الدين المحمدي في أقطار البلاد كالحرمين والبصرة والإحساء وغيرها فوجد الكل بما عليه أهل نجد من الكفر والضلال عاملون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ فرجع رحمه الله إلى نجد لما أراد الله به وبأهله وغيرهم من الفضل والإحسان من إخلاص العبادة للملك الديان فأقامه الله فيه مقام الأنبياء والمرسلين بالدعوة إلى توحيد رب العالمين، فقرر للعباد على ذلك البراهين ونهى عن الشرك وأبان أدلة بطلانه للعالمين، ومكث على تلك الحال مدة من السنين ثم أقام الله له أنصاراً وأعواناً أيدوا الحجة بالسيف والسنان ضرباً وإثخاناً فارقوا في رضا مولاهم الأهل والأوطان وسمحوا بنفوسهم في رضى الرحمن ليكون الدين كله لله فهدموا تلك الأوثان، وبعثروا البناء على القبور وقطعوا تلك الأشجار، وألزموا الناس ما أوجب الله عليهم من شرائع الدين فصدقهم الله وعده وأعز جنده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ فأزيل الشرك من نجد والإحساء والقطيف وكذلك الحجاز وبعض اليمن كالشحر وحضرموت وعمان، ولم يبق في هذه الأوطان بحمد الله إلا التوحيد المحض، بأن الله هو المعبود وحده وأن محمداً رسوله ﷺ هو

المحكم في الأمور والمطاع، فسار رحمه الله هو والأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود سيرة عمرية وسياسة شرعية مدة حياتهما حتى أتاهما اليقين، رفع الله درجاتهما في عليين، وسيرة الشيخ قد ظهرت واشتهرت عند من نور الله بصيرته في جميع الأمصار والأقطار، ولكن علماء نجد الذين في وقته تربوا على الباطل الذي ألفوه وكبر عليهم مفارقة الحطام الذي يأكلوه والدخول في طاعة غيرهم كبراً وحسداً ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآية. وجلا كثير منهم للعراق وغيره، وصاروا يحدثون أنواعاً من الأكاذيب ينسبونها إليه ويحرضون الملوك عليه وينفرون بها الناس عنه وعن ما جاء به نظير ما حصل من أعداء محمد ﷺ. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. لله در الشافعي حيث قال:

لو لم تكن لي في الصدور مهابة ... لم تطعن الأعداء في وتقدح
كالليث لما خيف حط له الزبى ... وعوت من هيبته الكلاب النبح

فمن أعظمها قولهم إنه يكفر بالذنوب، وأنه يستحل دماء المسلمين وأموالهم، فالجواب أن نقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، بل الشيخ رحمه الله من أورع الناس في مسألة التكفير كما ذكرنا طرفاً من تورعه عن التكفير عند الجواب في نسبة أحمد بن زيني دحلان إليه ذلك فراجعه. وأما كلامه رحمه الله في تكفير من بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة وأبى وعاند بعد العلم مصرًّا على شركه، فمن حين ظهرت هذه الدعوة النجدية وجردت عليها السيوف اتباعاً للسنة المرضية فمن ردها وأباها فالكلام عليه واللوم متوجه إليه، وهي بحمد الله قد عادت وطارت، والقرآن العظيم أكبر حجة على من بلغه وكذا سنة رسول الله ﷺ وأصحابه أعظم شاهد على من خالف ما شرعه، وتوحيد الله

بالعبادة وأنه لا شريك له فيها، يدل عليه القرآن والسنة دلالة صريحة معقولة يشترك فيها التالي والسامع مع هداية العقل إلى ذلك ودلالته عليه، وفهم الحجة منه غير بلوغها، وللعلماء رحمهم الله تعالى أقوال في هذا المجال. والشأن كل الشأن في حال أهل هذا الزمان إذ علم التوحيد والدعوة إليه قد اشتهر وظهر فإنه فرض لازم. وعلم الشرك وأنه حرام محض أشهر من نار على علم، ولكن لغلبة الشرك واعتياده وانفراد كل ملحد بمآكل رعيته وبلاده شق عليهم مفارقة ما ألفوه وما يدخل عليهم من المجابي المحرمة ويأكلوه، فكاد أن تنطمس مباني الشريعة وتنهدم معانيها المنيعة، وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها حتى بزغ قمر التجديد، وطلعت شمس التوحيد بدعوة المروج لمساع التفريد في جميع العبادات للحميد المجيد وهو شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب أسكنه الله جنة المآب، فنور الظلام وجلى القتام وبين سبيل السلام إلى بلوغ المرام، وألف المؤلفات في توحيد الله بجميع العبادات مع إقامة الحجج القاطعة والإنصاف التام والمناظرة والمراجعة، ولم ينقطع بحمد الله مع مجادل في حجة، بل يقيم عليه أدلة المحجة، وحرص أعداؤه من العلماء أن يظفروا منه بمسألة يخالف فيها العلماء فلم يحصلوا على شيء من ذلك، فعاد قارح الإسلام بدعوته جذعاً، ورجع دارس الأحكام به منتجعاً، وكان رحمه الله سنيًّا أثريًّا متبعاً، فرحمه الله رحمة الأبرار، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أعظم الجزاء بمنه وكرمه آمين، فما أليقه رحمه الله وعفى عنه بقول محمد بن جمال الدين يوسف اليافعي اليمني الشافعي رحمه الله حيث قال:

لو وفق الله أهل الأرض قاطبة	إلى الصواب لساروا خلف مذهبه
رميتموه ببهتان يشان به	فالله ينصفه ممن رماه به

متمسكاً بصحيح القول متبعاً خير القرون الأولى جاؤا بمذهبه
مع الأئمة أهل الحق كلهم قالوا كما قال قولاً غير مشتبه

وهذا آخر ما أردنا جمعه نصرة لتوحيد الله تعالى الذي جحده المشركون على طريق العدل والإنصاف، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وصلى الله على سيد الأولين والآخرين نبيك وحبيبك محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، والحمد لله رب العالمين حمداً دائماً مستمراً إلى يوم الدين، وكان الفراغ من رقم هذا الرد المبارك ضحوة الخميس من شهر جمادي آخر من سنة ١٣٠٤هـ بقلم الفقير إلى ربه المستقيلة من ذنبه:

محمد بن زيد آل حمد
التميمي نسباً الحنبلي مذهباً وذلك بإشارة من مؤلفه
الشيخ صالح بن محمد الشثري
أعظم الله جزاءه وسامحه يوم لقاه
وصلى الله على أشرف المرسلين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله مقابلة وتصحيحاً في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام العشرين وأربع مائة وألف من الهجرة النبوية في مكة المكرمة، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

محمد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري



الفهرس

الموضوع الصفحة


شبكة الألوكة
www.alukah.net